مأساة فتاة

همس الريم

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الملحم، عصرية أحمد

مأساة فتاة./ عصرية أحمد الملحم - ط٢. - الرياض، ١٤٢٩هـ

١١٣ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٤-٤٥٩-٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٠١٩٥٣١، ٨١٣ ١٥٠٧ /١٤٢٩

رقم الإيداع: ١٤٢٩/١٥٠٧

ردمك: ٤-٤٥٩-٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

مأساة فتاة

كان يوم جميل عندما اصطحبتني أختي الكبرى معها إلى السوق لتشتري لي بعض حاجيات المدرسة، كانت الفرحة تغمرني حينها، وكنت سعيدة لدرجةٍ كبيرة، فهذه آخر سنة في الثانوية وبعدها أدخل إلى الجامعة.

إنه مستقبل مزهر أمامي؛ فالثانوية هي الجسر الذي سوف أعبر منه إلى المستقبل، يجب أن أضع كل جهدي لكي أحصل على درجات عالية تؤهلني للدخول إلى القسم الذي أحبه.

ذهبنا مع السائق بعد أن رفض أخي أن يوصلنا بسيارته وكنا لا نذهب معه إلا في الضرورة القصوى؛ لأن هذا السائق كان سائق والدي الخاص، بالإضافة إلى أنه كان يشتري لنا أغراض المنزل.

قالت له أختي: اذهب بنا إلى السوق؛ وعندما وصلنا قالت له: ارجع بعد ساعة إلى المكان نفسه.

كانت هذه أول مرة أذهب فيها مع أختي إلى السوق لوحدنا دون أمي، لكن أختي الكبرى كانت حريصة عليّ لدرجة كبيرة، فشعرت كأن أمي بجواري.

مشينا في السوق واشترينا بعض الحاجيات، وعندما كنا في محل لبيع الإكسوارات وأنا كنت أختار لي ما يعجبني مع تعليق من أختي

الكبرى وإذا بي أرى أمامي رجلاً وجهاً لوجه، خجلت جداً ولم أعرف ما أعمل، فأسدلت الغطاء على عيوني فوراً، وأخذ الرجل طريقاً آخر فوراً وتهامس مع الفتاة التي معه بضع كلمات، فقالت له: لا أعرف، يمكن أن تكون هي.

بعد ثوانٍ، رنّ هاتف أختي وإذا بصديقتها سعاد تتصل بها وقالت لها: أين بالضبط؟ قالت صديقتها: في المحل نفسه الذي أنتِ فيه.

وأشارت بيدها نحوها، قالت لي أختي: هذه سعاد إنها هنا في السوق، قلت: من سعاد؟ قالت: ابنت عمنا وصديقتي.

وقف الشاب الوسيم بعيداً يحدق بنا عن بعد، بينما أخذنا نحن وبنت عمي نتبادل أطراف الحديث، حيث ضحكت سعاد وقالت: والله كبرتِ يا ريم وأصبحت عروساً، وأشارت نحو ذاك الشاب وقالت: هو الذي عرفك من عيونك.

نظرتْ إلي أختي نظرات أعرفها وكأنها تريد ذبحي وأنا أتعثر في الكلام وأهمس: عيوني، كيف؟.. وما دخل عيوني؟.

قالت سعاد: طبعاً عيونك، خالد يعرفها جيداً. عرفت حينها أن ذاك الشاب هو خالد، كنت بأمس الشوق لكي ألقي إليه نظرة خفية لكني خجلت جداً ولم يكن الظرف مناسباً.

قالت سعاد: ما شاء الله أول مرة نرى خالداً ابن عمنا، لقد أصبح شاباً وقد كبر جداً، وأنا كنت أستمع أطراف الحديث دون حراك وكأني فعلت جريمة لا تغتفر.

بعدها سألتْ سعاد عن أمي ولماذا نحن وحدنا في السوق؟ أخبرتها أختي بأن أبي مريض جداً ولا تستطيع أمي المجيء وتركه وحده.

انتهت الساعة بسرعة كبيرة، قال خالد لسعاد: من سيرجعهما إلى البيت؟ فقالت سعاد: السائق. فغضب خالد جداً وقال: ما الذي يفعله أبناء عمي؟ يتركون أخواتهم يذهبن مع السائق.

ضحكت سعاد وقالت: هذا أصبح شيئاً عادياً، وأنت أيضاً عندما تتزوج سوف تتركنا وتذهب مع زوجتك، من لنا غير السائق حينها؟ نظر إليَّ خالد نظرة سريعة ولكن هذه المرة لم يرَ عيوني وسكت.

ركبنا في السيارة وتكلم خالد مع السائق بضع كلمات يوصيه علينا وعلى السرعة، ومن خلال نافذة السيارة ألقى بنظرة سريعة نحوي ولكن أنا لم أعطه أي اهتمام وتظاهرت بأني لم أره إطلاقاً.

بعدها وصلنا إلى البيت، وإذا بالتلفون يرن، قالت أمي: أكيد هذا خالد؛ لأنه اتصل أكثر من مرة، يطمئن على وصولكما.

تعجبت أختي ما سر اهتمام خالد بنا؟!

تذكرت الأيام الماضية عندما كنا نسكن بجوار بيت عمي وكان خالد يلعب معنا أنا وأخواتي حيث كان يرفض الذهاب إلى البيت، وكان يحب البقاء معنا ولا يذهب لبيتهم إلا بالقوة.

حملت أغراضي وذهبت بها إلى غرفتنا أنا وأختي وجلست عند المرآة أفكر في خالد، إنه شاب وسيم ويدرس في الجامعة، إنها السنة الأخيرة عنده وسوف يتخرج عما قريب.

دخلت أختي علي وصرخت بي: بماذا تفكرين؟! قلت لها: لا لا شيء على الإطلاق. قالت لي: آها لا شيء؟! وضحكتُ فتركتني وذهبت. جلست بين أغراضي التي اشتريتها وقلت لنفسي: المدرسة أهم من كل هذا، ورتبت أغراضي وأقلامي ودفاتري في حقيبتي الجديدة.

ثم سمعت صراخ أمي، قفزت راكضة نحو أمي. قالت: ريم، أبوك لا أعرف ما به!.

ألقيت نظرة على أبي الملقى على الأرض فناديته: أبي أبي هل تسمعني؟ أرجوك أبي رد علي. لكن أبي لم يتفوه ولا بكلمة واحدة.

لا أنسى وجه أبي حينها، لقد كان وجهه شاحباً جداً وفي حالةٍ يرثى لها، وهو يمسك سماعة الهاتف بيده، فأمسكتُ بيده وأخذت السماعة واتصلت بأخي الكبير وقلت له: تعال بسرعة، أبي مريض جداً. قال لي: أنا بعيد عنكم جداً، اتصلي بأخيك الآخر. فعلت ذلك بسرعة. اتصلت بأخي وليد فجاء بسرعة ونقل أبي إلى المشفى.

وبعدها اتصل بنا وقال: أبي في العناية المركزة، فأخذنا بالبكاء أنا وأختي.. ماذا به أبي؟ لماذا تدهورت حالته؟!

أبي هو الوحيد الذي يدافع عنا أمام إخوتي، هو الوحيد الذي يؤمن لنا كل شيء، أبي هو الوحيد الذي يشجعني على إكمال دراستي بتفوق، أبي هو الوحيد الذي يقول دائماً: يا أستاذة.

ذهبت أقرأ القرآن الكريم وأبكي وأسأل الله العظيم أن يشفي أبي.

بعدها بعدة ساعات اتصلت أمي وقالت: أبوكما تحسنت حالته وطلب أن يراكما فتعالا بسرعة.

جاء أخي وليد واصطحبنا إلى المشفى، عندما دخلت وجدت أبي ملقىً على السرير الأبيض بلا حراك والأجهزة تملأ جسده.

لم تتماسك دموعي فبكيتُ وبكيت، وأخذت أمي تضمني إلى صدرها وتقول لي: لا تخافي يا حبيبتي سوف يكون على ما يرام إن شاء الله.

بعدها دخل أخي الكبير وقال: ما أخبار العجوز؟ ونظر إلي وقال: في كل شيء تحبين أن تتدلعي علينا، متى تكبرين؟! إن عقلك يشبه عقل الأطفال كثيراً، إنك مجرد غبية كبيرة. لم أرد عليه ولا بكلمة، واستغربتُ من كلامه.

وقال لأخي: اذهب بالنساء إلى البيت ليس لهن مكان هنا، وقال: إنه سوف يجلس مع أبيه وحده.

قالت أمي له: سوف أكون معك. قال لها بصوتٍ عالٍ: لا، اذهبي معهم إلى البيت.

قبَّلت أبي قبلة على جبينه وكان ينظر إليّ بعينيه الجاحظتين والدموع تملأهما وكأنه يريد إخباري شيئاً، لكنه لا يستطيع الكلام ولا الحراك. ذهبت معهم وشعور غريب في داخلي لا أعرف ما هو.

وقفت أتأمل أبي للحظاتٍ، قالت لي أمي: هيا يا بنيتي قبل أن يثور أخوك علينا.

وعند خروجنا من باب الغرفة لمحت خالداً مع والده هناك في آخر الممر، وعندما رآنا أدار رأسه وذهب إلى آخر الممر.

سأل عمي أمي: إن شاء الله أبو محمد بخير؟ قالت له أمي: الحمد لله على كل حال.

ثم قال: ما شاء الله، هذه ريم! تعالي سلمي على عمك. قبّلت رأس عمي وفعلت أختي ذلك أيضاً. ثم ذهبنا وعمي يقول: لا تخفن إنه بخير إن شاء الله. مررنا بجانب خالد الذي سلم على وليد وسلم على أمي ليطمئن على حالة أبي.

كانت الدموع تملأ المكان، كنت حزينة جداً. لم أنم طوال تلك الليلة، كنت أصلي وأدعو الله أن يشفي أبي. ولم أتخيل ولو للحظة أنني سوف أفقده. وحتى إذا جاء هذا التخيل كنت أطرده وأقول: لا لن يموت أبي إن شاء الله.

جاءت أمي وقالت لي: نامي يا بنيتي، غداً أول يوم في المدرسة.

فذهبت أزج نفسي في أحضان أمي وأبكي وقلت لها: أمي سوف أحقق حلم أبي مهما كان. ابتسمت أمي ابتسامة حزينة. وقالت لي: الله يوفقك يا ابنتي.

لم أنم طوال الليل، وبعد أن صليت الفجر اتصلت بأخي الكبير لكي أطمئن على حال أبي. فردّ علي بصوت وكأنه نائم، وقال لي: ماذا تريدين، ما هذا الإزعاج في الصباح؟ قلت: أريد أن أطمئن عن حال أبي. قال: آه، أبوك، لا أعرف عنه شيئاً، كنت تعباً بالأمس وذهبت لأستريح في بيتي بعد خروجكم من عنده. أغلقت الهاتف بسرعة واتصلت بالمشفى وسألتهم عن أبي، قالوا لي: إنه ما يزال في العناية المركزة وحالته ليست مستقرة.

خرجت من الغرفة وذهبت إلى الصالة حيث وجدت أبي كالعادة يسبّح بعد الفجر، أقصد خيال أبي.

كنت أتخيل أني رأيت أبي. إذ كان في كل يوم يذهب لصلاة الفجر وبعد أن يعود يجلس في الصالة ويسبّح إلى طلوع الشمس. وكان يلقي علي تحية الصباح ويقول لي: أنتِ الوحيدة التي فيها الكثير مني.

جلست مكان أبي وبكيت كثيراً إلى أن جاءت أمي. وقالت لي: ريم المدرسة. قلت: أمي، اليوم لا أريد الذهاب إلى المدرسة. أريد أن أرى أبي. قالت أمي: لا يا حبيبتي، اذهبي للمدرسة، وبعد العصر سوف تزورين أباك، إن شاء الله سوف يكون بخير لا تخافي.

بعد كلام أمي أحسستُ بالراحة، وكلامها أعطاني الأمل كثيراً. ذهبت إلى المدرسة والدموع في عينيّ وكل تفكيري ينحصر في أبي فقط. وتذكرت أبي عندما كان يوصلني إلى المدرسة كل يوم ثم يُخرج

من جيبه نقوداً ويقول لي: خذي يا ريم. وكنت كل يوم أرفض وأقول: لا أريد شيئاً. وأبي يضحك ويقول: لا تردي أباك، لا يرد الكريم إلا اللئيم. ويقول لي عندما أفتح باب السيارة: ها لله ها لله في الدراسة والامتياز.

كانت كلماته في أذني، ودموعي في عيني، ولكن هذه المرة لم ينسكب كالعادة؛ لأنني اليوم صممت أن أكون الأولى على المدرسة إن شاء الله، وهذا التصميم كان من أجل أبي فقط.

مرّ اليوم في المدرسة شبه طبيعي مع تفكيري المستمر بأبي وحالته الصحيّة. جاء السائق مع زوجته ليصطحباني إلى البيت. قالت لي الخادمة: ريم أنتِ فيه معلوم ولا لأ؟. قلت: لا ماذا جرى؟ هل أبي بخير؟ قالت الخادمة: ماما كلام ما فيه كلام معلوم ريم على شان ريم صغير. قلت لها: أنا كبير ما فيه صغير، أخبريني أرجوكِ. ارتسم على وجهها الصمت والحزن. قلت: أبي ما به؟ ولم يجيبا علي بأي كلمة.

التزمتُ الصمت إلى أن وصلتُ إلى البيت. فقفزتُ بسرعة من السيارة ووجدت في بيتنا ازدحاماً شديداً. والجميع يهمسون: مسكينة إنها ابنته الصغرى وكان يحبها بجنون.

التزمتُ الصمت إلى أن بحثت عن أمي التي عندما رأتني فتحت لي ذراعيها. وقالت: ريم تعالي هنا. وبكت وبكت. وأنا أقول: أمي هل أبي؟ هل أبي؟! قالت: نعم، أبوك. ضمتني أمي إلى صدرها الحنون ولكني لم أبكِ من هول الصدمة واصطحبتني أمي وأختي إلى الغرفة.

جلست على سريري وأنا لا أعرف شيئاً وحتى لا أفكر بشيء، فقط أنظر بصمت وذهول. رفضت الطعام لعدة أيام ولم أخرج من غرفتي أيضاً. اجتمع الناس في بيتنا، جاءت ابنة عمي، سعاد، وقضت معنا بضعة أيام وحاولت إخراجي مما أنا فيه ولكن دون جدوى، فضلّتُ الصمت على كل هذا.

ولا أعرف ما الذي جرى لي في تلك الأيام. كنت لا أتكلم ولو بكلمة واحدة، وكنت أحدق النظر لدرجة استغراب من حولي وخوفهم علي، كرهت كل شيء من حولي، ولم أنم لفتراتٍ طويلة، وكانت الكوابيس ترافقني دوماً.

بعد أن انتهت أيام العزاء، سمعت صوتاً عالياً وبعض المشادات الكلامية بين إخوتي، وأمي تقول: نحن لا نريد شيئاً، خذوا كل شيء واتركونا بهمنا فقط. وأخي الكبير يصرخ ويقول: لمَ؟ وكل شيء مسجل باسمي. وأمي تقول: خذ كل شيء واتركنا نعيش حياتنا بهدوء.

بعدها لم أسمع سوى صوت الباب وبكاء أمي الذي ملأ المكان. وجدت نفسي مقصرة في حق أمي إذ يجب أن أكون أنا معها وأواسيها فتماسكت وصممت على الوقوف واستجمعت قواي وذهبت إليها وقلت: أمي، نحن معك. أخذت أمي تبكي وتقول: أعرفه منذ الصغر، يحب كل شيء لنفسه. إنه أناني، وإن المرحوم أباك كان يثق به لدرجة كبيرة.

وأخذت أمي تحكي لي عن حياة أخي الكبير وكيف أنها أنجبته بعد مدة طويلة من زواجها. حيث إنها ولدت قبله ثلاث بنات مما جعل الناس لا ترحم أمي وتلومها في ذلك وكأن أمي كانت مسؤولة عن

ذلك. حتى الرجال أخذوا يقولون لأبي: إن زوجتك لا تنجب سوى البنات. وأخذت أمي تلملم دموعها وتشكو لي وكأنني أنا أمها، وتحكي لي قصة زواجها من أبي الذي ذهب وتزوجها من ديار بعيدة. وتحكي لي عن غربتها التي قضتها هنا وعن أيامها الحزينة.

لقد عانت كثيراً حتى ولدت أخي محمداً، نعم محمد، نسيت أن أخبركم أنه اسم أخي الكبير. كانت أمي تحبه حباً جنونياً، وكذلك أبي الذي يمده بكم هائل من المديح كلما جاء إلينا أو تطرقنا إلى سيرته.

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت لأمي عصير ليمون، وبعد أن شربته اصطحبتها إلى غرفتها لكي تنام بهدوء، جلست بجانبها إلى أن نامت. شعرت في هذا اليوم أنني كبيرة، شعرت أنني مسؤولة عن أمي وعن الأسرة كلها.

ذهبت إلى غرفتي وقلت في نفسي: هذا محمد الذي كنتم تحققون كل رغباته دون أي شك فيه؟! هذا الذي كنتم تفضلونه على البنات! هذا ثمار تعب السنين التي قضتها أمي بتربيته. يا لأمي المسكينة، إنها فعلاً لا تستحق هذه النهاية.

ومِنْ مَنْ؟! مِنْ أكبر أولادها الذي انتظرتْ قدومه سنوات طويلة، هذا الذي قضت الليالي تسهر على راحته، وتترك كل شيء لأجله، هذا حلم المستقبل عندها؟! لقد حطم أحاسيس أمي. هذا الذي كانت تفكر بأنه سوف يحملها عندما تكبر ويعتني بها، وإذ آمال أمي تكسرت منه.

جلست في صمتٍ وذهول. يا لأمي المسكينة، كانت تعيش حياة تعيسة، الغربة والأبناء والتفكير بهم والسهر على راحتهم. وهي الآن فقدت شريك حياتها الذي قاسمته الحياة بحلوها ومرها، إن أمي مصابها كبير.

نعم أبي، انسكبت الدموع من عيني دون شعور، حتى إني لم أعرف على من أبكي اليوم. هل أبكي على فراق أبي أم أبكي على أمي المسكينة وحياتها التعيسة؟ ماذا سيجري بعد كل هذا؟!

بدأ الخوف من المستقبل يحيط حولي ولا أعرف لماذا؟! بعدها وبحوالي أسبوعين جاء أخي وليد يحمل ورقة. وقال لنا: إن كلام أخي الكبير صحيح، إن أبي قد عمل له وكالة وبدوره سجّل كل شيء باسمه بيعاً وشراءً، وقد علم أبي بذلك في آخر أيامه مما سبب له جلطة في الدماغ. وقد يكون هو السبب في وفاة أبي. وقد كان كلامه صدمة بالنسبة لنا جميعاً. لكننا سكتنا جميعاً ولم نتفوه ولا بكلمة واحدة، وعمّ الهدوء والصمت المكان.

وحتى إذا تناقشنا بهذا الموضوع كانت أمي تصرخ بنا وتقول: كل شيء قضاء وقدر لا دخل لمحمد بهذا «تقصد وفاة أبي».

يا لأمي المسكينة، إنها تدافع عنه، ألم تعرفه بعد؟! يا لقلب الأم لا يعرف الكره، لا يعرف سوى الحب والعطف والحنان.

رجعنا نمارس حياتنا بشكل شبه طبيعي مع تغير كبير جداً في كل شيء، ولكننا لم نعارض بل تقبلنا الأمر.

رجعت أنا إلى المدرسة وكنت أقل نشاطاً من السابق، بل كنت منعدمة النشاط والحيوية.

وفي يوم من الأيام انتظرت طويلاً أمام المدرسة ولم يأتِ السائق وزوجته لاصطحابي. مما اضطرني إلى أن أتصل بأمي وأخبرها بالموضوع، كانت أمي على أحر من الجمر أيضاً، وكانت خائفة عليَّ جداً. أخبرتها أن السائق وزوجته لم يأتيا.

قالت أمي: ابقي في المدرسة إلى أن آتي إليك.

وبعد نصف ساعة دخلت أمي للمدرسة وقالت: هيا بنا. نظرت إلى الخارج وإذا خالد بسيارته عند باب المدرسة. فقلت بصوت سمعته أمي: خالد. قالت أمي: نعم إنه ابن عمك جاء بالصدفة إلى بيتنا فأخبرته عنك فعرض علي أن يصحبني لنأتي بك.

دخلت السيارة وقلت: السلام عليكم بصوت لم يسمعه أحد حتى أمي التي تجلس بجواري. لم أنظر إليه بل نظرت إلى الأرض طوال الطريق.

قالت أمي لخالد: ممكن أن تكون السيارة معطلة أو أن السائق اصطدم بشيء أو حادث. قال خالد: كل شيء جائز، سوف أبحث عنه وأرد عليكم بأسرع وقت ممكن.

نزلتُ وأمي من السيارة دون أن ألقي ولو نظرة عليه وكأنه أمر لا يعنيني إطلاقاً.

بعدها جاء السائق مع زوجته إلى البيت منهمكين وعلى وجههما التعب. خرجتْ أمي تسألهما ما الذي جرى؟! قالا: «هذا ماما بيبي كبير فيه أخذ سيارة عند مدرسة». سكتت أمي ولم تتفوه بكلمة، بعدها أخذت سماعة الهاتف واتصلت بابنها وأخذت تلومه وتعاتبه وتقول له: أخذت كل شيء ماذا تريد بالسيارة؟.

واشتد الحديث بينهما، وبعدها قالت أمي: الله يهديه، لقد وصلت به الحماقة أن يغلق السماعة في وجهي! يجب أن نضع لحماقاته حد.

اتصلت أمي على عمي وأخبرته بالأمر، وكان عمي بدوره يعلم بالموضوع من ابنه خالد الذي علم بالموضوع. علمت بعدها أن عمي تكلم مع أخي ولم ينفع ذلك شيئاً؛ لأن أخي فعلاً كان جشعاً لدرجة كبيرة.

مرت الأيام بسرعة، وها نحن على أبواب الامتحانات.

كانت أمي تتدبر أمرنا وتبيع بين الحين والآخر من مجوهراتها حتى أصبح وضعنا الاقتصادي شبه محرج، فالسيارة تغيرت من سيارة فارهه إلى أخرى عادية. كل شيء تغير في حياتنا تدريجياً.

درست بجد لدرجة أنني كنت أواصل بعض الأحيان الليل مع النهار مما سبب لي دواراً في الامتحان، وسبّب لي خوفاً شديداً، لكنني والحمد لله نجحت أخيراً. وأصبحت أحمل الشهادة الثانوية. تذكرت أبي.. ليته يرى شهادتي وتفوقي.. ليته فرح معي.

كانت فرحتي يتيمة، ولست وحدي اليتيمة شاركتني شهادتي يتمي كلانا اليوم أيتام.

حملت شهادتي بيدي أريها أمي وأختي وأخي وليد. بعدها ركضت أختي إلى الغرفة لتقفل على نفسها الباب ولا أعلم السبب. ذهبت وراءها. قالت لي أمي: مهلاً، لا تفعلي إنها اليوم متعبة جداً، يجب أن تجلس لوحدها بعض الوقت. قلت: ماذا حصل لأختي؟ هل لي سبب في ذلك؟ هل تضايقت من نجاحي و تفوقي؟ لماذا؟ هي دائماً كانت تحب لي الخير.. لماذا تعاملني هكذا؟

أخذت الأفكار تدور في رأسي. لا، ليس الآن، لن أفقد حنان أختي.. إنها ليست أختي فقط بل هي صديقتي الحميمة. بعد سكوت وصمت من أمي صرخت بي وقالت: لا هذا ولا ذاك.

قلت: هل جدّ جديد مع زوجها؟ تذكرتُ زوجها فجأة. حيث كان زوج أختي بعد مضي شهور على زواجهم ذهب لجهة لا أحد يعرف عنها شيئاً. ولم يخبر أحداً عن وجهته.. فجأة اختفى من حياتها مما جعلها تحمل حاجياتها وترجع إلينا. وتحمل أثقالاً من الحزن والأسى والألم الذي سببها لها زوجها برحيله.

قالت أمي: وصلنا خبر غير موثوق أنه انتقل إلى رحمة الله. يا لحظ أختي التعيس، لم تعش حياة هنيئة، فقبلَ بضعة أشهر أبي واليوم زوجها.. مسكينة أختي.. لم تفرح قط، حتى إنها تزوجت ولم تكمل الثانوية.

أحبت زوجها وأعطته كل الدفء والحب والحنان وجازاها على ذلك بهجرها سنة كاملة.

كان أخي الكبير معارضاً بشدة زواجها.. يا لَشماتته اليوم بها.

كان زوج أختي رجلاً ذا دين وخلق، وكان إنساناً طبيعياً إلى حدٍ ما ولا يختلف على ذلك اثنان.

أرسل والدته لخطبة أختي، وبعد أيام جاءت الخطبة الرسمية من الرجال. وافق أبي وكان رأيه هو الأساس، عارض أخي الكبير بحجة أنه لا يملك شيئاً.

لكن أبي وافق وقال: أهم شيء أنه رجل ذو دين وخلق، وأن المال يذهب ويأتي لكن الرجل صاحب الدين والخلق، والنسب العريق صعب أن يوجد في عصرنا الحاضر.

وافقت أختي وزُفَّت إليه، وكانت جميلة للغاية يوم زفافها، وكانت سعيدة جداً.

وعاشت مع زوجها أياماً جميلة، ولكن بعد شهور من زواجهم اختفى زوجها ولا أحد يعلم أين هو الآن.

إنها فتاة مسكينة لا زالت في ريعان شبابها وهي تحمل هذا الكم الهائل من الألم والأسى. المشكلة أنها تحمله وحدها ولا تريد أن نقاسمها إياه ولاسيما أنا، فهي دائماً تظهر لي أنها على ما يرام وأنها بخير.

أعرف أنها لا تريد أن تزيدنا أوجاعاً، لكن أنا أختها وأشعر بها، ولا تنسوا أني صممت أن أكون مسؤولة عن الأسرة كلها.

جئت إلى أمي أحثها على الاتصال بأهل زوج أختي لكي نعلم ما استجد من أخبار عنه ولنتأكد فيما إذا كان هذا الخبر صحيحاً أم لا.

اتصلت أمي بأهل زوج أختي، وفوراً سألتها أمه هل من خبر عنه؟ أمي استغربت وعلمت أنهم لم يعلموا بخبر وفاته. أجابتها أمي بالنفي. ولم تتطرق لموضوع الوفاة وقالت: لعله إشاعة فقط.

أفرحني ذلك، ذهبت مسرعة إلى أختي وطرقت الباب وقلت لها: لم يمت اطمئني إنه بخير. خرجتْ مسرعة تمسح بقايا دموعها وقالت لي: من أين لك الأخبار يا عفريتة؟ كل شيء تعرفيه لا يخفى عنك شيء؟ وقالت: كنت أعرف أنه بخير.. كان قلبي يعلمني عنه.. كان إحساسي يقول لي: إنه بخير لكن أين هو؟ وساد الصمت بالمكان.

قلت بضحكة: أنا أعرف أين هو، قالت مسرعة: أين؟ قلت لها: هنا. وضربتُ على صدرها. إنه في قلبكِ دائماً وأبداً. سوف يبقى هنا وإن فرقتكما الدنيا سوف تجمعكما الجنة بإذن الله. كان كلامي مثل البلسم الشافي لها. ضحكتْ وقالت: معك حق، إنه يعيش في قلبي إلى الأبد، إنه نصفي الآخر.

خرجتُ من الغرفة وأسرعتُ بإحضار العصير والكعكة المحترقة التي صنعتها بنفسي بمناسبة نجاحي، وأخذا بكم من التعليقات علي وعلى كعكتي. كنت أريد هذا. لقد ابتسم البيت أخيراً بعد طول الحزن والكآبة، كان هذا هدفي وسأواصل في تحقيقه شيئاً فشيئاً.

بعدها ذهبت إلى غرفتي وأغلقت الباب وانفردت بدموعي التي ملأت المكان. لقد تظاهرتُ بالفرح أمام أمي وأختي لكي أبدد الأحزان عنهما، لكن أنا من يستطيع أن يشتت الأحزان عني؟!

بكيت على أبي وعلى حال أمي الذي أخذ يزداد سوءاً وعلى حال أختي المسكينة التي لا تعرف هل زوجها حي أم ميت؟ بكيت وبكيت كثيراً إلى أن دخلتْ أختي عليّ ورأت الدموع، ابتسمتُ وقلت لها: هذه دموع الفرح بالنجاح.

نظرتْ إلي نظرات غريبة وكأنها لم تصدق كذبتي البيضاء، وأخذت تبكي معي وتقول لي: وأنا سوف أفرح معك قليلاً.

دخلت أمي وأخرجتنا من جو الحزن لتفاجئنا أن خالتي أم خالد وابنتها سوف يزورانا الليلة.

ذهبت مع أختي وأعددنا أنواعاً من الحلويات. وكنت مجتهدة للغاية، مما استثار انتباه أختي وقالت بضحكة: كأن الاهتمام زايد اليوم! أجبتها: طبعاً، هذه زوجة عمي الغالي الذي أعده بمقام المرحوم أبي.

قالت لي: آه عمك. طبعاً فهمت قصدها لكني لم أبال، وتابعت عملي بنشاط وفكرت مراراً وتكراراً في ماذا أرتدي. ثم اخترت البساطة كي لا أثير فضول أحد.

رنّ جرس الباب إذ بزوجة عمي وابنت عمي سعاد عند الباب. استقبلتهم أمي بحرارة وأختي أيضاً. أما أنا جاءني شعور غريب لا أعرف مصدره، كنت في صراع داخلي مع نفسي. هل ألقي نظرة عليه من خلال النافذة؟ وماذا لو كان ينظر إلى النافذة، ما هو شعوري عندها؟

وأخيراً قررت ألا أنظر إليه، وفزت على رغباتي الداخلية.

بعد دقائق، جاءت أمي تستعجلني. تظاهرت بأني تعبة ولا أعرف لماذا أريد الهروب من زوجة عمي. لكن أمي لم تقتنع وسحبتني بالقوة، كنت في داخلي أزغرد فرحاً وأنا أتظاهر بعدم المجيء، لكن أعتقد أن أختي كانت تفهم جميع مخططاتي دوماً؛ لأنها دائماً كانت تقول لي: هذه الحركات كنا نعملها عندما كنا صغاراً.

دخلتُ بخجل شديد وسلمتُ على زوجة عمي وقبّلت رأسها. ومن الخجل نسيت أن أسلم على سعاد ابنت عمي. إلى أن ضربتني أختي ضربة مفاجئة مع ابتسامة مصطنعة وقالت: سلّمي على سعاد.

بعد ذلك انهال علي طوفان من المديح الذي أغرقني وأنا لا أعرف السباحة في هذه الأمور. بعد ذلك استأذنت بهدوء ولحقت بي أختي.

ثم قالت سعاد: هل يوجد أحد في البيت؟ أجبناها بالنفي. إن أخي وليداً لم يعد بعد. ذهبنا إلى المطبخ لنحضر ما أعددناه. وسعاد تتذوق وتقول: الله! طعمٌ رائعٌ، من التي أعدته؟. وطبعاً أختي قالت: من غيرها.. إنها ريم. قالت سعاد: ما شاء الله! محظوظ من يتزوج ريم.

لا أعرف ماذا حصل، لكن أذكر أن لوني صار أحمر ثم أصفر، ثم تقلبت إلى عدة ألوان ومن بعدها رجعت إلى لوني الطبيعي.

قالت أختي: ما زالت صغيرة. وبعد أن خرجتْ أختي سارة وأنا كنت ألحق بهما، فجأة أمسكت بي سعاد وقالت: معي رسالة لك. قلتُ بخوف وتعجب: رس رس رسالة، مِنْ مَنْ ؟؟

فاجأتني أكثر عندما قالت لي: إنها من ابن عمك مع هدية بمناسبة النجاح. طبعاً رفضتُ بشدة أن أستلم الهدية وطبعاً الرسالة بداخلها.

دخلتْ أختي وقالت ريم: خذيها إنها من ابنة عمك، لا تخجلي. قلت بنفسي: إنها منه وليست منها. قالت سعاد: ريم لا تخجليني وخذيها. أخذتها وأمسكت بها بيدي وأخذت أحدق النظر فيها وسادتني لحظة صمت.

قالت لي سارة: ستبقين في هذا الحال كثيراً وكأنك لم تتالي هدية من قبل. أمسكتُ بهديتي وتجولت بها في البيت دون شعور. ثم أمسكت سعاد بيدي وقالت: يا غبية، اذهبي وأخرجي الرسالة من الهدية بسرعة.

فعلاً ذهبت ولم أهتم للعلبة المزكشة الجميلة، ولكني كنت أبحث عن شيء آخر وهي الرسالة.

وجدتها، إنها هي.. نعم هي.

أمسكتُ الرسالة ورائحة فوّاحة ملأتها. مسكتها بيدي الاثنتين وفكرت ماذا يكون قد كتب بها؟ يجب أن أقرأها.

وبينما كنت منهمكة أريد أن أقرأها وإذ بسارة عند الباب.. ريم. قلتُ بسرعة: نعم. قالت لي: عيب هذه الحركات. حلفتُ لها أني ما أردت أن أستلم الرسالة لولا تدخلها هي.

قالت: عادي، بعد كم شهر سيصبح زوجك؟ أمه كلمت أمي بالموضوع.

أصابني ذهول! زوجته؟! قالت: نعم يا غبية، زوجته هاتي أريني الهدية. فتحت العلبة وإذا بقلب يحمل الحرفين. طبعاً حرفي وحرفه.

قالت سارة: يا سلام! قمة الرومنسية.

قلت: من أنا أنت هو.

لا أعرف ماذا أصابني.. أصبتُ بذهول شديد.

قالت: هيا اقرأي الرسالة.

عندما فتحتُ الورقة وإذا بأمي تنادينا: ريم، سارة.. ماذا تفعلان هناك؟

ذهبتْ سارة وقالت: اقرأي أنتِ رسالتك وأنا سوف أذهب إلى أمي وأساعدها.

فتحتُ الرسالة وإذا كُتب بها.

عزيزتي ريم:

«يا من ملكتِ قلبي وفكري ووجداني.. مبارك النجاح، وأتمنى أن تكون فرحتك اليوم فرحتين؛ لأني أرسلت أمي اليوم لخطبتك، وأسأل الله العظيم أن تكوني من نصيبي».

كان كلامه عذباً ودخل قلبي فوراً دون مقدمات. آه نسيت أنه كان أصلاً في قلبي.

بعدها غادرت أم خالد وسعاد منزلنا دون أن تلمح لي أمي بالخبر السعيد. شعرت أن اليوم انتهى بسرعة وسرعان ما ذهبت إلى غرفتي وقرأتُ الرسالة مراراً وتكراراً. لكن جاءتني سارة وأخبرتني أن وليداً لم يعد بعد.

جـاء آخـر الليل. لكن أين أخي وليـد؟ لم يعـد في آخـر الليل كالعادة، أمـي وقفت تمشي ذهـاباً وإيـاباً وتفرقع أصابعها وتهمس بكلمات لا نسمعها.

هاتفه مغلق. سألنا عليه الأقارب والأصدقاء لا أحد يعرف أين هو. البـيت عمَّ بالصـمت، وكل منا في وجـهـها ألف سـؤال. لكن السـؤال الفصل هو أين وليد؟

فجأة قلت بصوتٍ عالٍ: خالد. نظرتْ أمي إلي نظراتٍ حادة وكأنها تؤنبني. قلتُ بهدوء: اسألوا خالداً لكي يبحث عنه.

قالت أمي: نعم، خالد. سوف أتصل به فوراً. جلستُ بجانب أمي وسمعتها تكلم خالداً.

وما إن سمع خالد صوت أمي حتى انهال عليها مديحاً وشكراً: كل شيء تريدونه أنا جاهز، كل متطلباتكم سوف أنفذها. قالت له أمي: لا، نريدك في موضوع آخر.

وأخبرته عن وليد. وطبعاً بعد بحث طويل وجدنا وليداً في حال يرثى لها، وبعد الكشف الطبي والتحاليل اكتشفنا الأمر الذي هزّ كيان العائلة. أن وليداً إنسان مدمن على المخدرات ولا نعرف كيف حصل ذلك.

كان عاقلاً جداً، ولكن بعد وفاة أبي تغير كل شيء، فصار يتأخر ليلاً ويتحجج بحجج واهية كي يتغيب عن المدرسة، وانقلبت حياته رأساً على عقب، حتى إنه ينام النهار ويقوم الليل. وصرنا لا نراه إلا بالصدفة وهو يعيش معنا في بيت واحد.

كانت صدمة أمي شديدة جداً، وزاد الطين بلة عندما قرر أخي محمد أن يضع وليداً في مشفى الأمل لكي يتعالج من هذه السموم.

بقينا وحدنا في البيت أنا وأمي وأختي، وازداد بيتنا وحشة بعد ذلك؛ فأخي محمد يأتي بين الحين والآخر وينهال علينا بكمٍّ هائل من الشتائم دون أي سبب، فقط لأننا بنات.

لكن الخبر المفرح أن زوجة عمي كانت تكثر الاتصال بأمي بشأن موضوع الخطبة؛ لأن أمي كانت تؤجله دوماً، إلى أن عرفتُ أن أمي مسكينة وأن محمداً هو الذي رفض هذا الزواج .

بعدها تدخل عمي وأقنعه بذلك، وأن الموضوع منتهٍ من قبلِ وفاة أبي، حيث كان عمي قد خطبني منه لخالد.

بعدها بأيام انعقد قراني على خالد لكن أمي اشترطت أن يتم تأجيل الزفاف إلى حين خروج وليد من المشفى الذي أبى أن يستجيب للعلاج وكانت حالته تزداد سوءاً.

أما خالد، أصبح هو وليّ أمرنا وهو المسؤول عنا. كان يأتي لنا بكل ما نحتاجه، وطبعاً لا ينسى أن يأتي لي بوردة أو هدية مع كل قدوم له إلينا.

أما أنا فلم أعد أصارع في النظر إليه من خلال النافذة لأن نظري إليه أصبح مباحاً لي شرعاً.

كنت أسترق النظر بين الحين والآخر إلى زوجي الغالي الذي كان يشعر بي. لكنه لا يريد أن يخجلني.

زاد حبه في قلبي بعد وقوفه معنا في أشد محنتنا في حين تخلى عنا غيره.

حلّ جميع مشكلاتنا المادية والمعنوية؛ حيث إنه وجد عملاً لأختي سارة، وكان يزور وليداً باستمرار ويشجعه على أخذ العلاج مما جعل حالة وليد تتحسن تدريجياً. حتى إنه فاجأنا ذات يوم برسالة من زوج أختي الذي عرفنا أنه كان سجيناً في معتقل خارج البلاد يدعى غونتنامو بعد أن أُمسك به في أفغانستان.

كان خالد يبحث عنه في الخفاء بعد أن عرف حالة أختي. كان بكل شيء يفعله يزداد حبه في قلبي. حتى قلت في نفسي هل خالد فعلاً إنسان في منتهى الروعة أم أنا أتخيل ذلك لأني أحبه؟

مسكين خالد، لم أعطه أي فرصة يعبر فيها عن مشاعره وأحاسيسه.

طلبتُ من أمي أن أهاتف خالداً وأن أشكره على وقوفه معنا في ظروفنا الصعبة. وأقنعتُ أمي أنه من حق خالد أن يراني أيضاً ويتحدث معي لأنه زوجي شرعاً.

وافقت أمي أن أهاتفه فقط، بشرط أن لا يتكرر ذلك مني.

فقررت أن أهاتف خالداً برقم جديد لا يعرفه حتى يحسبني فتاة أخرى. وبعد صبر حصلت على رقم باسم السائق واتصلت على خالد.

قلت بصوت رقيق: خالد.

قال بصوت جاف: نعم.

قلت: أنا معجبة.

قال لي بلهفة: وأنا معجب منذ سنين طويلة.

أغلقت الخط فوراً وكنت في قمة الحرج، هل عرفني أم لم يعرفني؟ هل هو فعلاً يستقبل أي فتاة تقول له إنها معجبة.

أمسكتُ الهاتف بيدي إلى أن رنّ بيدي لكني لم أرد.

أرسل رسالة يقول فيها: «ردي يا ريم، أعرفك لو تخفيت بين ملايين البشر».

لم أصدق نفسي حينها، عرفني مع أني حاولت تغيير صوتي.

جاءت أختي سارة بينما الهاتف يرن، أخذت الهاتف من يدي وعرفت رقم خالد. فردت عليه وقالت: ماذا فعلت بالبنت إنها متجمدة؟.

ناولتني سارة الهاتف وخرجتْ. وخالد يردد: ريم ريم زوجتي حبيبتي ردي علي. أنا اليوم سعيد لأنك هاتفتني.

وأخذ يرتجيني، لكني لا أعرف ماذا حصل لي فعلاً.. كنت شبه متجمدة. قلت بصوت منخفض: نعم أنا معك.

قال خالد: أخيراً طاوعك قلبك وهاتفتني كنت أنتظر هذه المكالمة منذ زمن بعيد. تحسبينني لا أعرف صوتك؟ أنتِ تسكنين في أحشائي متربعة على عرش قلبي وعقلي. أفكر بك ليل نهار وأنتظر بشوق متى تجمعنا الأقدار.

لم أتكلم كثيراً، فقط كنت أستمع إلى أعذب حديث سمعته بحياتي. إلى أن قفزت سارة من سريرها وقالت: ريم! ماذا حصل لك؟ هل جننت؟ إلى الآن وأنتِ على الهاتف .

نظرت إلى ساعتي وإذا بها الخامسة صباحاً.

يا إلهي كيف مرّ الوقت بسرعة! عندها أخبرتُ خالداً بالساعة لكنه رفض إغلاق الخط وتحداني إن استطعتُ إغلاقه أنا.

فعلاً، لم أستطع إغلاقه. وبعد جدال طويل من يغلق الخط أولاً اتفقنا على أن نغلقه معاً في اللحظة نفسها.

لم يطاوعني قلبي على إغلاق الخط وتفاجأت أنه مثلي تماماً.

أخيراً جاءت سارة وحلت المشكلة وقالت بصوت سمعه خالد: أنا سوف أغلق الخط وهذه آخر مرة لكما.

فعلاً لم أكلمه بعدها، لكن الرسائل كانت متواصلة بيننا إلى أن جاء يوم وصلني خبر لم أصدقه.. خبر مزق قلبي إرباً.. خبر أيقظني من أحلامي الجميلة.

خبر أنساني طعم السعادة، خبر حطم كياني، حطم فؤادي، حطم كل شيء جميل في حياتي. إنه خبر وفاة حبيبي، إنه خبر وفاة قلبي وعقلي، تمنيت لو أني أنا من تُوفي وليس هو. وفاة زوجي خالد إثر حادث مروري أليم .

أُصبت بحالة نفسية بعد الحادث مما اضطر أمي أن تأخذني للمشفى، وأعطوني كماً هائلاً من المهدئات لكن دون جدوى. كنت أناديه كل ما استيقظت من غيبوبتي. بل لا أتكلم إلا باسمه فقط.

إلى أن أصبحت نزيلة لمشفى الأمراض العقلية بسبب تطور الحالة أصبحت أخرج من البيت بحثاً عن خالد.

كانت هذه حالة ريم مع قوة غريبة صاحبت حالتها حيث كانت مصدر خوف من أسرتها جميعاً.

هكذا فرّق القدر بين قلبين مجتمعين في قلب واحد.

لم يتخيل أي طرف منهما أن تكون هذه هي النهاية الحزينة.

أما زوج سارة عاد من المعتقل شبه مختل عقلياً بسبب التعذيب الذي لاقاه في السجن وأخذته سارة بحنانها. وأنجبت أطفالاً أيضاً.

ومحمد رقّ قلبه لأمه بعد سنين من القطيعة.

ووليد بعد خروجه تغيّر وصار إنساناً آخر وأكمل دراسته وتزوج وأسكن أمه معه في بيته.

ظلت ريم نزيلة المشفى إلى أن توفيت بعد خمس سنوات من وفاة حبيبها خالد.

ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن تلتقي به في جنانه.

وجهة نظر

بعد مرور مدة طويلة ما زلت أكرههم جميعاً فكلهم واحد في نظري، أعرف قد تقولون إني معقدة أو مريضة أو بي جنون، لكني أقول لكم هذه هي الحقيقة.

لا أطيق النظر إليهم لأن الخيانة تسري في دمائهم والكذب وسيلة للتهرب من حمل المسؤولية وعبارة عن شيء أقل من عادي عندهم.

أنا آسفة لأني عبرت بصيغة الجمع ونسيت أن لكل قاعدة شواذَّ، وقد يكون هناك شواذ في قاعدتي أيضاً، لكن الشيء المهم الذي أعرفه حق المعرفة أن الخداع والمكر أبسط مهنة لديهم مع احترامي لهم أو لبعضهم على الأقل.

كانت فكرتي قبل هذا اليوم تعكس تماماً ما أنا عليه اليوم، وقد لا تصدقون أني كنت أحب أحدهم في يوم من الأيام، لكنه كان أوغدهم على الإطلاق.

كنت أحبه حباً لا أعتقد أن امرأة أحبتْ رجلاً مثلي، بل كنت أحبه أكثر من نفسي. كنت أسميه سابقاً الحب، ليتني لم أطلق عليه هذا اللقب؛ لأنه شوه هذه الكلمة وكل ما بها من سمو.

بعدها عرفت أن الحب لا يساوي شيئاً هذه الأيام، وخاصة عند بعض ضعاف النفوس أمثاله، بل الحب هو سلعة رخيصة جداً وخاصة عند الذي لا يعرف قيمة الحب ولا يعرف معنى هذين الحرفين اللذين هما من عصور بعيدة إلى اليوم وغداً، وفي المستقبل، والجميع يعبر فيهما عما يشعر به، ولحد الآن لم يعطوا هذين الحرفين حقهما من وجهة نظري الشخصية.

ولكل إنسان وجهة نظر خاصة، قد أكون مصيبة وقد أكون مخطئة ..!

كان يزورنا في أغلب الأحيان. كانت نظراته وتصرفاته بريئة براءة الكلاب (عذراً على الألفاظ غير اللائقة).

لكن هذا أقل تعبير أستطيع أن أصفه به، وأقل صفة أستطيع أن ألصقها به، ولا سيما أنه شوّه أغلى كلمة كانت في قلبي، فله ما يستحق من الشتائم التي سوف أطلقها عليه.

كنت في ريعان الشباب عندما طلب يدي من والدي ووافق الجميع ورحبوا به؛ لأنه إنسانٌ عرف بالاتزان وبكل شيء لائق في الحياة. ولم نعرف أنه شرير ومخادع ويختفي خلف قناع الإنسان الطيب.

مرت الأيام بسرعة وسرعان ما تزوجته، إذ كان يوماً مشؤوماً من أوله لآخره. فعندما ذهبت إلى صالون التجميل انفجر السيشوار في شعري، وجاءت المصففة ببسمة زائفة. وزادت الطين بله عندما حرقت رقبتي بالفير.

وبعد ما انتهيت وذهبنا إلى المكان المخصص للاحتفال بهذا اليوم المشؤوم. وبينما أريد الجلوس في المكان المخصص لي انقطعت الكهربا، فلم أعد أرى شيئاً سوى الظلام وبعض العيون التي

كـانت تسطع في الظلام. مما أثار الرعب في داخلي وقلت بصـوتٍ عالٍ: أمي أين أنت؟

كانت والدتي تمسك بيدي طوال الوقت، وبعد محاولات جاءت الكهرباء، لكن تفاجأنا أن فرقة أخرى دخلت إلى مسرح الجريمة، أقصد إلى مسرح الفرح الذي كنت أجلس بوسطه (لم أكن أعرف حينها بأني أنا المحكوم عليها بالإعدام مدى الحياة).

الفرقة الجديدة التي دخلت معهم أم زوجي، وواضح أنها هي التي استدعتهم من تصرفاتها حينها.

حاولت أن تطرد الفرقة التي أحضرتها والدتي لكن أمي أبت ذلك. وحصل عراك شديد ابتدأ بالكلام والشتائم وانتهى بإمساك الشعر من جميع الجهات من حولي، وكل فرقة تقول إن لها الحق في إحياء ليلة زفافي المشؤوم.

وبعد مضي نصف الليل ووصول بعض الشخصيات المهمة انحل النزاع بين الطرفين. نظرت إلى نفسي فوجدت التسريحة التي خسرت بها ما تبقى من شعري ذهبت أدراج الرياح، والفستان الذي أنفقت عليه مبلغاً طائلاً كان مقطعاً وشبه تالف.

لم أهتم لذلك إطلاقاً لأني سوف أقابل هذه الليلة الإنسان الذي طالما أحببته.

بعد مضي باقي الليل لم يأتِ زوج الغفلة.

بكيت لأني كنت أعتقد أنه قد توفي في حادث سير في أثناء قدومه لاصطحابي إلى بيتنا. لكن خاب ظني عندما علمت أنه حي يرزق. وتفاجأتُ عندما أخبروني أنه في البيت ويغلق غرفته عليه.

بعد محاولات عديدة من بعض الشخصيات المهمة، أتى لاصطحابي. وعند دخوله إلى مقر الحفل سرق أنظار الحاضرات بطلته البهية، وبادلهن هو الشعور نفسه مع توزيع بعض الابتسامات الزائفة لمن حوله.

استغربت من تصرفاته الحمقاء ذاك اليوم، لكني عرفت أنه يحاول إغاظتي وإخباري بشكل غير مباشر أنه على قدر من الجمال، يضاهي جمالي أنا كما يعتقد هو، لكن الحقيقة العكس طبعاً؛ لأن ثقتي بنفسي كانت كبيرة للغاية ولم أبال بتصرفاته الحمقاء، حتى إنه التفت إلي وقال: ألا تلاحظين أنك مغرورة غروراً زائداً.

في البداية استغربت من حديثه وقلت في نفسي: لماذا تغير بشكل مفاجئ؟ لقد كاد أن يجن قبل هذا اليوم، ووافق على جميع شروطي وشروط أسرتي. ما الذي دهاه فجأة وكأنه لا يلاحظ وجودي إطلاقاً!؟

بعدها اصطحبني إلى بيتنا. وقال لي: تفضلي مع بسمات مزيفة.

وعندما هممت بالدخول سحبني بقوة وقال: الرجال يدخلون قبل النساء. بعدها ذهب إلى إحدى الزوايا، وهاتف أحدهم وقال له: نعم فعلت مثل ما طلبت مني بالضبط.

وكأنه ينفذ تعليمات من أحدهم.

بعدها قال لي: تعالي أريكِ منزلنا. كان بيتنا جميلاً للغاية، كنت قد أثثته بنفسي وكل قطعة فيه من اختياري أنا.

كان لطيفاً للغاية قبل أن يهاتفه أحدهم، بعدها أمسك بما تبقى من شعري وقال لي: هل ترين هذه الغرفة؟ «كانت الغرفة عبارة عن مكتب فيه أوراقه الخاصة وجهاز كمبيوتر» قلت: نعم. «بخوف شديد» قال: إذا رأيتك تحاولين الاقتراب منها سوف أكسر رأسك.

لمست رأسي وقلت في نفسي: هل بقي لدي رأس في هذا اليوم المشؤوم؟

عندما رآني أبكي من غير أن أصدر صوتاً نهرني بقوة وقال لي: لا تبكي اسكتي لا أريد أن أسمع لك همساً. حتى كان وكأنه يعاني من انفصام في الشخصية، فتارةً يكون لطيفاً وتارة ينقلب إلى إنسان شرير، ولا سيما بعد تلقيه مكالمات هاتفية.

عرفت حينها أني تورطت ورطة كبيرة في زواجي من هذا الإنسان المجنون الذي لا يمتلك شخصيته الخاصة، وكل من هب ودب يتدخل بشؤونه بحجة أن أول يوم هو الأساس في السيطرة على الزوجة في المستقبل.

وحسب وجهة نظره، فإن الرجل إذا عامل زوجته معاملة قاسية من أول يوم سوف تنصاع لكل ما يقول في المستقبل، ونسي أن التفاهم بين الطرفين هو الأساس. (هذا الذي فهمته من تصرفاته).

بعدها طلب مني أن أخلع حذاءه وجواربه. قلت بداخلي: هيهات... هيهات أنا لست جارية لديك، بل أنا كلي شموخ وعزة وليس أمثالك من أخلع حذاءه.

إذا كانت هذه البداية معه فكيف ستكون النهاية؟ قررت أن أكون أنا من يخط خط النهاية بنفسي. أخذت هاتفه في غفلة منه وذهبت مسرعة إلى غرفة وأقفلت الباب خلفي.

وهاتفت أمي وأخبرتها بكل شيء وأني متزوجة من شخص مجنون أو شبه مجنون. قالت لي: خيراً فعلتِ يا ابنتي.

أخذ يطرق الباب إلى وقت متأخر لكني لم أجبه.

جاءت أمي وحاول الاعتذار لها بشتى الوسائل، لكن أمي اعتبرت نفسها خارج الموضوع ورشّحتني أن أكون أنا وكيلة نفسي في هذا الموضوع، وأنا وحدي من أملك أن أعفو عنه أو لا .

عندما سمعت صوت أهلي عند باب الغرفة فتحت الغرفة. توسل لي وطلب مني العفو والصفح والسماح. لكني لم أعاتبه ولم أتكلم معه أي كلمة، فقط رميت في وجهه كل ما اشتراه لي وقلت له: طلقني فوراً.

لكنه لم يطلقني إلى اليوم. بحجة أنه يحبني حباً جنونياً.

لا أعرف هل فعلاً يحبني أم يعاقبني؟

لا أعرف هل أنا على صواب أم على خطأ؟

جسد بلا روح

ها أنا أعود في منتصف الليل كباقي الليالي الفائتة لم يَجُدَّ في حياتي جديدٌ، بل أعيش حياتي من سيئ إلى أسوء ولاسيما بعد أن فقدت الأمل في لقياها.

آه، عندما أتذكرها... تبتسم الحياة لي، كل شيء يبتسم في حياتي وليس حجاجي وحده الذي يبتسم.

لم أشعر يوماً من الأيام أن لها هذا القدر الكبير من الحب في قلبي، كنت أحسبها سابقاً أنها مجرد عابرة سبيل في حياتي. ولم أعتقد أنها ستكون نزيلة في قلبي إلى الأبد.

وصلت إلى باب منزلي لكني لم أستطع النزول، فقررت أن أذهب في باقي الطرقات التي حفظتها عن ظهر قلب أسير دون وعي مني ودون هدف محدد فقط، لا أريد أن أذهب إلى بيتي وأرى زوجتي.

«ما ذنبها هي ؟!»

نعم هي فتاة مسكينة يجب أن أقاوم كل مشاعر اللامبالاة تجاهها، وأبتسم ابتسامة زائفة عند استقبالها لي. يجب أن أقاوم شعوري بالأسى والحزن عندما أراها أمامي، أنا الذي جلبتها إلى بيتي، أنا من اخترتها من بين ملايين النساء.

سألت نفسي: هل أنا كنت أحقق رغبة أهلي فقط أم فعلاً كان لها شيء في قلبي؟ لا أعلم الإجابة لكني أعتقد أن الإجابة الأولى أولى.

لم أعد ذاك الفتى الصغير، إني اليوم رجل وأب لأطفال. يجب أن أقسو على قلبي قليلاً وأنساها، أو على الأقل أحاول أن أنساها وألتفت إلى أسرتي الصغيرة.

ولكن كيف لي ذلك؟ إن قلبي عندها منذ زمن بعيد كيف أنساها؟ وإن نسيت!! مستحيل أن تنساني هي، واثق ثقة تامة أن قلبي في مكان آمن هناك. لأني أعرف أنها تحبني حباً جنونياً كما أحبها آاااه كم أحبها وكم أتمنى لها السعادة.

وقفت عند هذه الكلمة السعادة. يالَلمسكينة إن حظها عاثر كما كانت تخبرني دوماً. لقد أجبرت على الزواج من أحدهم، وكنت أنا سبب ذلك، لأني عندما تقدمت لخطبتها وكنت غريباً عنهم لأني تعرفت إليها من خلال إحدى المنتديات، إذ استمرت علاقتي معها أكثر من سنة. عرفت خلالها كل شيء عنها وهي عرفت كل شيء عني.

لكن أهلها رفضوني لأني لست من أسرتها نفسها؛ ومن قوانين العائلة ألاّ يزوجوا ابنتهم لغير ابن العائلة، بعد أن تقدمت لخطبتها قسا عليها أهلها كثيراً ومنعوها من الذهاب إلى جامعتها.

وأيضاً منعوها من الإنترنت عامةً، لقد عانت تلك الفتاة كثيراً بسببي. وأنا كنت أقف وأتفرج لا أستطيع أن أمد يد المساعدة لها.

عندما رأيتها آخر مرة عرفت من كلامها أنها لم تكن سعيدة في حياتها الجديدة. بل كانت في قمة الإحباط، حينها كانت تكتب كلماتي وكأنها تلومني لأني تخليت عنها في أشد احتياجها لي.

لكن الشيء الذي استطعت أن أفهمه أنها مازالت تحبني وأن لي قدراً كبيراً في قلبها.

حاولت اجتذاب الحديث منها عن معاملة زوجها لها لكنها كانت تتهرب من الإجابة دوماً. حتى أنا لم أكلمها عن حياتي مع زوجتي ولا عن أسلوب معيشتي. وهي بدورها لم تسألني عن هذا الأمر ولم تحاول اجتذاب الحديث عن ذلك. وكأن أمري لا يعنيها إطلاقاً.

سألتني فقط عن أولادي، لكني شعرت أنها كانت تلمح لي أني مجرد إنسان لا يعنيها إطلاقاً ولا سيما بعد أن تزوجت. لكني أشعر بمشاعرها نحوي، لا تسطيع أن تخفي طابع حبها لي مهما حاولت جاهدة، فكلما آتي إلى بيتي أفكر بها، بل كل يوم لها وقت خاص من التفكير.

نظرت لنفسي لماذا أجلس في السيارة إلى هذا الوقت؟! نزلت من السيارة وأخذت المفتاح وفتحت باب منزلي، كان هدوء يخيم على المكان. وكأن البيت لا يوجد به أحد، قلت بصوت عالٍ: «شذى، أنا عدت أين أنتِ»؟. خرجت نحوي مسرعة وقالت لي: من شذى؟!. قلت لها: لا أعرف من شذى؟ من ذكر اسم شذى؟. قالت لي: أنت!!.

كنت أحسبها نائمة لكني لم أقصد أن أنطق اسم شذى، لكنه ظهر دون شعور مني. خرج اسمها بطريقة عفوية جداً، وكأن قلبي الذي نطق به وليس لساني.

ذهبت إلى كمبيوتري لعلي أجد رسالة منها لكن دون جدوى. فآخر رسالة كانت قبل سنة عندما أخبرتني أن حالتها الصحيّة متدهورة جداً. وطلبت مني أن لا أنساها وأن أبقيها في قلبي مدى الحياة.

كانت رسالتها غامضة جداً حتى إنها لم تخبرني عن مرضها وما سببه. لكني مازلت أحتفظ بهذه الرسالة لهذا اليوم، بل وكل رسائلها السابقة ما زالت محفوظة لديّ، وكلما ضاقت بي الدنيا أذهب مسرعاً لأجد أرقَّ كلامٍ سمعته كُتِبَ في بطاقاتها التي أرسلتها لي: آاااه كم ظلمتها في ذلك الوقت، كانت تحاول بشتى الطرق أن ألتفت إليها لكني كنت أنانياً جداً بحقها، لم أعرف أني أحبها إلا بعد ما فقدتها إلى الأبد.

بل هي حبي الأول والأخير، سأحبها ما حييت ولن أنساها يوماً من الأيام.

أنا أعيش حياتي عبارة عن إنسان بجسد بلا روح بلا إحساس بلا مشاعر، لقد سرقت شذى مني كل هذا. بل أنا أعطيتها إياه بمحض إرادتي، إنها ترافقني في كل مكان، في يقظتي في نومي في أحلامي. أجدها هناك دوماً بانتظاري.

عشت سنتين لا أعرف عنها شيئاً إطلاقاً، فقط أنها متزوجة من أحدهم ورُزقت بطفل.

خُـيِّلَ لي أنهـا نسـتني منذ زمنٍ، لكن فـاجـأتني ذات يوم ببـريد إلكتـروني تريد من خـلاله الاطمـئنان عن حـالي. لم أصـدق مـا أرى، جلست طيلة الليل وأنا أقرأ رسـالتـهـا مـراراً وتكـراراً. وكأني في حلم وكأن رسالتها بصيص أمل بالنسبة لي.

تتالت الرسائل بيننا إلى هذا اليوم. أصبحت تستشيرني بكل شيء. تحولت في حياتها من حبيب إلى أخٍ وصديق.

لا يهم ذلك، الأهم أنها مازلت تكُن لي التقدير والاحترام.

يومٌ في حياتي

ها أنا أعود اليوم من جديد كما كنت في السابق.

بعد أن قضيت بضع سنوات في وضع شبه مستقر أو كما كان يظهر لي.

ها أنا أعود يتمية، لكني اليوم لم أعد اليتيمة الوحيدة، بل معي ثلاث يتيمات أخريات. «إنهن بناتي».

هل يا ترى سوف يعانين مثل ما عنيت؟!! لا، لن أسمح بذلك.. إطلاقاً. لن أسمح للماضي أن يتكرر مرة أخرى أمام عيني وحتى لو كنت أنا الضحية كما كنت سابقاً.

سوف ألعب دور الضحية دوماً وأبداً، ولكن ليس في مسلسل أو فيلم سينمائي، بل دور الضحية في واقع حياتي المرير.

هذه كانت أفكاري التي تصحب كماً هائلاً وغزيراً من الدموع في أثناء عودتي من عملي.

بعدها أخذ السائق المفتاح والمحفظة وقال: هذا ما وجدناه مع زوجك قبل دفنه.

أخذته وقلت في داخلي: نعم إنه مفتاح المنزل قلتها بحسرة، قلتها بألم. فتحت الباب وأدخلت بناتي الثلاث، حاولت أن أبقي باقي دموعي حبيسة لكن عيوني أبت ذلك.

لم أجده أمامي كالعادة، وجدت ظلمة شديدة داخل المنزل. وكأن المنزل ارتدى اللون الأسود حزناً وحداداً على رجل البيت.

بحثت عنه كالعادة، إذ كان دائماً يفاجئني بمقلب من مقالبه الطريفة. لكن دون جدوى، بحثت في أركان بيتنا الصغير وأنا أعرف أنه لا يوجد ذرة أمل في وجوده.

شعرت بانهيار تام، وسقطت على الأرض لا أستطيع الحراك. أسرع بناتي نحوي وصرخن: ماما، ماما ما بك ؟؟!.

ضممتهن إلى صدري وبكيت بحسرة. مما استثار فضول بناتي. وقلن: ماما لماذا هذه الدموع ؟؟!.

سكت وفكرت بماذا أخبرهن «هل أقول لهن الحقيقة أم أظل صامتة؟». دخلت ووضعت حقيبتي على الطاولة وجلست على كرسي ووضعت يديَّ خلف رأسي.

وقررت أن أخبر بناتي بالحقيقة المرة. قررت أن أقول لهن اليوم مات أبوكن. لكني لم أستطع أن أنطق بها، إنها كلمة صعبة جداً.

مسحت ما تبقى من دموع. ولفظت عوضاً عنها كلمة «اليوم سافر والدكن»، كنت أعرف أنه سافر بلا رجعة.

إنه سافر إلى العالم الآخر، لكن بناتي كان لديهن أمل بعودة والدهن.

ذهبت للمطبخ وحضرت بعض الطعام لبناتي، ولم أستطع أن أتذوق شيئاً إطلاقاً منذ ساعة سماعي للخبر الفاجع. حاول بناتي إقناعي بأن أتناول الطعام معهن. لكني قلت لهن: إني تناولت الطعام خلال الدوام.

ذهبت إلى غرفتي ولمحته مستلقياً على السرير، اقتربت بسرعة لكني لم أجد شيئاً إنه مجرد سراب.

كفكفت دموعي وقلت لنفسي: من اليوم أنا مسؤولة عن نفسي وأيضاً عن بناتي، من اليوم لم يعد لنا أحد على وجه الأرض.

توكلت على الله، فمن توكل على الله فهو حسبه.

وكنت أعرف سابقاً أن نمط حياتي سوف يتغير من لحظة سماعي للخبر. كل شيء حولي سوف يتغير.

حمدت ربي لأني توظفت وظيفة شبه لائقة ودخلها شبه معقول. من اليوم يجب علي أن أضع جدولاً بكل شيء. يجب أن أقسّم ألفين وخمس مئة ريال على كامل المصاريف: «أجرة البيت وفاتورة الكهرباء وإيجار السيارة التي تنقلني وبناتي وفاتورة الماء والهاتف».

وقفت عند فاتورة الهاتف وقلت: هذا ليس له فاتورة، لأني لا أعرف أحداً ولا أحد يعرفني. لا يوجد من يعزيني بوفاة زوجي فكيف من يهاتفني؟

قد تضحكون عليّ وتقولون كيف أستطيع أن أحسب وأنا في هذه الظروف الصعبة.

وأنا أقول لكم: أنا أحاول الهروب من الواقع وقد أحاول أن أعزي نفسي أو أن أسلي نفسي بشيء لكي أخرج من جو الحزن والكآبه ولا سيما أمام بناتي.

يجب أن أظل صامدة قوية أمامهن ولا أبرز لهن مواطن ضعفي؛ لأني أنا القدوة لهن دوماً وأبداً. وأنا كل ما يملكن في هذه الدنيا.

وقفت لحظات صمت دون شعور مني وجدت عيوني تبكي لوحدها على حالتي التي يرثى لها. سرعان ما عدت لجو الحزن والكآبة.

ظللت أنا طريحه الفراش متذكرة زوجي. وحبه وعطفه علي، تذكرت أيامي الجميلة البسيطة معه. تذكرت أحلامنا التي ذهبت أدراج الرياح. تذكرت كيف كنت أحلم مع زوجي أحلام يقظة كنا سنشتري سيارة. «طبعاً بالتقسيط».

لأن راتب زوجي ألف وخمس مئة ريال فقط. لكن مع راتبي تغير الوضع أو كما كنا نحسب حينها. كانت أحلامنا بسيطة على قدر رواتبنا لكن كنا سعداء.

كنت كل شيء في حياته كما كان هو كذلك في حياتي؛ لأنه هو أيضاً كان يتيماً وكان يعيش في ملجىء أيتام سابقاً.

بينما كنت أعيش مع أسرة فقيرة تربطني صلة قرابة بيني وبينهم، كانت حياتهم صعبة جداً قد تفوق حالتي مع زوجي سابقاً، وعانيت في سنواتي السبعة عشرة أمرّ أيام حياتي.

كانت حياتي قاسية جداً، وزادها قسوة المرأة التي كنت أعيش مع أسرتها صاحبة البيت التي كانت تعاملني معاملة قاسية جداً أسوء من معاملة الخدم.

كانت تعتبرني فتاة مشؤومة حينها؛ لأن كل أقربائي تُوفُّوا ولم يبقَ غيري من الأسرة كلها.

كانت دائماً تطلق علي فتاة الشؤم إلى أن عرفت أن الشؤم يصاحبني إلى عُقر داري.

فكرت بكلامها اليوم كم كانت على حق في هذا اللقب، قضيت أياماً قاسية في بيت تلك العجوز الشمطاء التي لم تحن علي يوماً من الأيام، بل كنت بالنسبة لها مجرد خادمة مجانية. أعتقد أن الخدم أحسن حالاً مني حينها.

لكن لا أعرف كيف سمحت لي أن أكمل دراستي، ربما لكي ترتاح مني ولو لبعض الوقت؛ وربما لأن الدراسة مجانية وغير مدفوعة التكاليف. «الحمد لله أنها سمحت لي بإكمال دراستي».

كانت توفر لبناتها كل شيء، وأنا كنت أرى وأسمع كل هذا أمام عيني ولا أملك سوى الصمت. كانت تعامل بناتها بكل حنان وعطف، أما أنا فكانت تعاملني عكس ذلك تماماً، بل بكل قسوة وعنف. وتحرمني من كل شيء، ولا تسمح لي بمقابلة الضيوف. حتى إن أحداً لا يعرفني لأنها عزلتني عن المجتمع الخارجي من حولي.

كنت أعيش معهم في شبه معتقل يكاد يشبه معتقل غونتنامو لكن معتقلي مع الأعمال الشاقة.

ولم تصدق الخبر عندما أخبرها زوجها بأن شخصاً فقيراً ومعدماً ويتيماً يطلبني للزواج. فوافقتْ فوراً دون أي شروط وكأنها كانت على أحر من الجمر لكي تتخلص مني بأي وسيلة.

لكن هذا الشخص المعدم عشت معه أسعد أيام حياتي، وكان كل شيء بالنسبة لي، فتارة أعده أبي وتارة أخي وتارة أسرتي وتارة حبيبي، إنه كل شيء في حياتي، وبفقدانه أشعر وكأني جسد بلا روح.

طرقت ابنتي هند الباب فكفكفتُ ما تبقى من دموع، وأذنت لها بالدخول. قالت لي: إن امرأة طاعنة في السن تريد مقابلتي، فنظرت إلى الساعة، يااااه كل هذا الوقت ولم ينتهِ اليوم بعد!! إنه أطول يوم في حياتي كلها.

استغربت جداً، مَنْ هذه المرأة؟! يا ترى من هي وماذا تريد؟؟.

ذهبت لاستقبالها ولم أعرفها في البداية، لكنها هي، نعم إنها العجوز الشمطاء.

حسبتها جاءت تعزيني بوفاة زوجي، لكن عرفت منها أنها لا تعلم بخبر وفاته.

بل جاءت تطالبني بحقوق تزعمها عندي ولا سيما بعد ما توظفت. قالتها بكل طلاقة وثقة بالنفس.

فـأخـذتُ أفكر من أين آتي لهـا بنقـود أسـد رمقـهـا، حـتى تذكـرت محفظة زوجي وقررت أن أذهب وأرى ما بها.

عندما فتحت المحفظة وجدت بطاقته الشخصية وصورته ومبلغ عشرين ريالاً فقط لا غير.

رجـعت إليـهـا وأخـبـرتهـا أني لم أسـتلم الراتب بعـد. وفي حـال استلامي الراتب سوف أعطيها مبلغاً منه فوراً. كانت بناتي ينظرن إلى العجوز بشكل غريب وأسئلة كثيرة تلوح في عيونهن.

أخبـرتها أن زوجي قـد توفي. قالت لي ضـاحكة: ألم أخـبـرك أنك فتاة شؤم!؟

إنهـا إنسـانة وضـيـعـة جـداً، كـيف تقـول مـثل هذا وأنا في هذه الظروف؟ فلتجاملني قليلاً على الأقل.

علمت بعـد ذلك منهـا أنهـا تسكن لوحـدها بعـد أن توفي زوجـهـا وتخلى عنها بناتها بعد زواجهن.

حاولت إقناعها أن تعيش معي حالياً لكنها رفضت تماماً. ووعدتني أنها سوف تزورني في أقرب وقت مع التأكيد على مسألة النقود.

خرجت أخيراً بعد ما التهمت كل ما وجد من طعام في بيتنا وكأنها لم تتذوق الطعام منذ زمن بعيد.

رجعت إلى غرفتي وصليت المغرب. مع شعور غريب بفقدان شيء مهم جداً، شيء لا يمكن تعويضه؛ شيء ثمين جداً، أثمن من حياتي كلها.

ذهبت أنظر في أنحاء المنزل في كل ركن، لكن هذا الشعور ما زال يصاحبني. حاولت تغيير هذه الأفكار من رأسي بشتى الطرق. وتذكرت كم عانيت إلى أن أتى تعييني في إحدى المدارس.

كان خبر تعييني مفاجأة لي بعد أن فقدت الأمل في ذلك، لكن لا يأس مع مَنْ توكل على الله.

لكن سرعان ما عادت الأفكار إلى ذهني، إني أجده أمام عيني حيثما أنظر. فجلست أنظر إلى كل ركن من أركان الغرفة، كل شيء يذكرني به. هنا كان يجلس، وهنا كان ينام، وهنا كان يقف، أجده في كل مكان أمامي.

تذكرت آخر يوم في حياته، عندما رجعت من الدوام كان ينتظرني في الصالة. دخلت البيت فوجدته أمامي يبتسم. وقف وسلّم علي وكأنه لم يرَني منذ زمن بعيد. سلّم علي بحرارة مما أثار استغرابي. وسلّم على بناتي أيضاً وقبّلهنّ وأعطى كل واحدة منهن هدية بسيطة.

وقال لي: اليوم اشتريتُ طعاماً جاهزاً لنا جميعاً؛ لأني لا أريد أن أتعبك. وتمنى لو أنه يستطيع أن يوفر لي كل شيء أتمناه وكل شيء أحلم به.

أخبرته حينها أني لا أريد شيئاً إطلاقاً. وقلت له: وجودك معي أجمل هدية بالعالم كله. لكنه أصر على ذلك.

بعد أن تناولنا الغداء، ذهب البنات إلى النوم وجلست معه نتبادل أطراف الحديث.

كان ينظر إلي بلهفة وشوق وكان يفكر بالمستقبل ويبشرني أننا سوف نعيش حياة مستقرة؛ لأنه وجد عملاً آخر. وسوف يعمل ليلاً ونهاراً لكي يسعدني، لكنْ غلبني النوم بينما هو تابع حديثه.

وعندما علم أني غفوت أخذ ريشة ووضعها على وجهي وأيقظني من غفوتي وأخذ يضحك. كانت ضحكته تساوي كل ما في الأرض من جواهر وألماس ومال.

هو عندي أغلى من كنوز الأرض كلهـــا، وتمنيت في قلبي أن لا يحرمني الله منه ولا من ابتسامته. لكن والله لا أعرف لماذا كان قلبي ينقبض بين الحين والآخر.

حاولت أن أنام بعدها لكني لم أستطع، جلست بقرب التلفاز، لحق بي زوجي وأخذ يعتذر مني لأنه أيقظني من غفوتي. أخبرته أني لم أبال بهذا الأمر ولم أحمله على محمل الجد إطلاقاً.

وقلت في داخلي: ليته يعرف أنه حتى لو ضربني لن أغضب منه إطلاقاً. فكيف أغضب من مداعبة جميلة من مداعباته، ذلك اليوم لا يُنسى إطلاقاً. إنه يوم رائع مرّ سريعاً وكأنه حلم.

وعندما أتى المساء أصر على اصطحابنا في نزهة إلى إحدى الحدائق القريبة. وأصر أن يشتري لنا وجبة عشاء خفيفة، كنا جميعاً في قمة السعادة.

رجعنا بعد ذلك وخلدنا إلى النوم جميعاً، وفي الصباح وجدته في المطبخ يعد لنا الفطور، لقد صحا من نومه قبلنا جميعاً وفاجأنا بالفطور. ضحكنا جميعاً من تصرفه هذا.

ثم أتى السائق وذهبنا إلى المدرسة أنا وبناتي، ودّعت زوجي وقلت له: لا تشترِ طعاماً اليوم، فسوف أعد لك طبقاً تحبه جداً. كنت لا أريده أن يبذر ما لديه من نقود قليلة و لا سيما أني أعرف حالته المادية شبه المعدومة.

لم أكن أعلم أنه آخر لقاء بيني وبينه، لم أعلم أن وداعي له سيكون آخر وداعٍ.

لم أكن أعلم أن هذا اليوم هو يوم فراقنا إلى الأبد.

إني أسمع الآن أذان الفجر يااااه ما أطول هذا اليوم !

نظرت إلى نفسي في المرآة، لم أعرف نفسي. يا إلهي ما هذا؟ إن وجهي شاحب جداً. لماذا عيوني بدت هكذا؟!.

صليت الفجر وذهبت أحضر الفطور لبناتي والقهوة. أصابني دوار فظيع بعدها فسقطت على الأرض دون حراك.

رفعت رأسي وجدت الدنيا تدور فيه. ذهبت للمطبخ ولكن قلت لنفسي: لمن أصنع القهوة؟ وكيف سيكون طعمها بعد رحيل الحبيب؟

انتهت صلاة الفجر في المسجد ولكنه لم يأتِ كالعادة. جلستُ في انتظاره وكلي ثقة تامة أنه لن يأتِ.

فتحت الباب مسرعة أنظر يميناً وشمالاً لعلي ألمح على الأقل طيفه. شعرت أن أحداً ما يخنقني، لم أستطع حتى التنفس. ذهبتُ مسرعة إلى غرفتي وسيول من الدموع تغرقني.

لمحتُ القرآن الكريم أمامي. وقررت أنه يجب عليّ أن أقبل بهذا الواقع المرير، ويجب أن أقوي إيماني بالله، ويجب أن أعرف أن هذا قضاء وقدر.

وأمسكتُ القرآن الكريم بيدي وقرأت، وكأنني لم أقرأ القرآن من قبل. كنت أبكي وأقرأ، لكن شعرتُ بعدها بأني أستطيع التنفس، بل وكلي نشاط وحيوية أيضاً.

ذهبت واستلقيت على أريكة مجاورة لي. وحمدت الله سبحانه وتعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأكبر نعمة هي وجوده معنا.

سطع بريق الأمل أمامي عندما تذكرت الجنة ونعيمها. نعم إنها الجنة. يجب أن أسعى جاهدة لكي أحصل عليها، وهناك ألقى مَن أحب ومن يملك قلبي وعقلي، يملكهما ملكية خاصة، ولن أسمح لأحد بأن يمس هذه الملكية بسوء، بل سوف أحتفظ بملكيته إلى أن ألقاه.

نعم إن الدنيا دار ممر وليست دار مقر، وكل البشر سوف ينتقلون إلى رحمة الله عاجلاً أو آجلاً.

لكن في مثل هذه المواقف يعرف الإنسان قوة أو ضعف إيمانه. ويجب علينا جميعاً أن نحاول أن نستغل الفرص سواء أكانت إيجابية أم سلبية.

نستغلها استغلالاً تاماً للتقرب من الله سبحانه وتعالى ونقوي إيماننا به.

زوجي مدمن

لقد تغيّر كثيراً ولا سيما في المدة الأخيرة. أصبح أكثر استحقاراً لي ولشخصيتي، ودائماً ما يُعيّرني بجهلي وعقليتي المتخلفة.

مع أني أمتلك الشهادة الثانوية وعلى قدر من الثقافة والمعرفة، بالإضافة إلى المظهر الحسن.

كان حلمي أن أكمل دراستي إلى أن أصل لأعلى الدرجات، لكنه رفض ذلك بحجة أن المرأة ليس لها سوى بيتها وزوجها، ووظيفتها الوحيدة والأساسية هي تربية أولادها وخدمة زوجها فقط.

كيف يرفض أن أكمل دراستي ثم يأتي ويعيرني بجهلي وتخلفي؟!.

لقد ضاقت بي الدنيا حينها ولم أعرف ما أفعل، وقفت صامتة مستغربة من كلامه القاسي جداً.

لم أتخيل أن يقول مثل هذا الكلام في يوم من الأيام ولا سيما بعد ثلاث سنوات من زواجنا.

ولا أنسى أننا رفضناه في البداية، فخطبني مرة أخرى ورفضناه، أما في المرة الثالثة فقد استطاع أن يقنع أهلي به ولا سيما بعد أن لازم على الصلاة في المسجد وترك رفاق السوء وجلس في مجالس الرجال وأعفى اللحية وقصر ثوبه.

والأهم من ذلك أنه أقربائي إذ إنه من عائلتي نفسها. وافقت على الزواج منه بعد أن وافق أبي وأهلي جميعاً وما كان مني إلا أن انصعت لرغباتهم.

وعشت معه حوالي عامين في أحسن حال، فقد كان نعم الرجل الذي تتمناه كل فتاة. أحببته بشكل كبير، ووفرت له كل أساليب الراحة والسعادة، حتى إنه قال لي ذات يوم: بيان، هل أنا أعيش في حلم أم أن كل الذي حولي حقيقي؟. قلت له: طبعاً يا ناصر حقيقي، وعسى أن تدوم السعادة بيننا إن شاء الله.

كان يساعدني في المنزل ولا سيما في أيام حملي الأول لدرجة أنه كان يمنعي من حمل أي شيء حتى لو كان شيئاً خفيفاً جداً؟ بحجة أني حامل وأنه يخاف عليّ أولاً وعلى الجنين ثانياً، كان يسهر معي الليالي ويشعر بي في حال كنت أتألم وكأنه هو الذي يتألم، مما أسهم في ازدياد مساحات ملكية قلبي له.

وعشنا حياة طبيعية، وكان روتين حياتنا عادياً. ففي الصباح، أحضر الإفطار له، وبعد تناول فطوره كان يذهب إلى عمله بعد أن أوصله عند الباب وأدعو له بالتوفيق في كل أموره، وأعمل جاهدة في ترتيب شقتنا الصغيرة وصنع الطعام مثل أي زوجة، تقوم بواجباتها اليومية.

وأحرص دوماً على أن يراني في أحسن حال من كل النواحي ولا سيما في زينتي وهندامي. وعندما ينتهي عمله أستعد لاستقباله وكأنه من كبار الشخصيات، أكون في أبهى حلتي وكأني سأذهب إلى مناسبة مهمة جداً.

عندما يهمّ في فتح الباب أفتحه فوراً قبل أن يفتحه هو، ويقول لي دوماً: بيان، أنتِ أروع زوجة في العالم. وأنا أقول له مع ابتسامة: وأنت أروع زوج في العالم، تفضل لقد نوّر البيت. يقول لي: البيت منوّر بوجودك ...

أحمل شماغه بينما هو يغسل يديه ويبدل ملابسه وهو يقول: الله ما هذه الرائحة الجميلة. أقول له بمزحة (حزر فزر) يقول: أمممم أكيد كل الذي تصنعينه لذيذ.

كان ناصر يداعب طفله دوماً، وكان يحبه حباً كبيراً مثل أي أب آخر، ودائماً ما يبتاع له كل ما يتمناه الأطفال من ألعاب وحلويات وغيرها.

ولا ينسى أن يرفّه عن عائلته الصغيرة كل آخر أسبوع. يوم الأربعاء نتناول العشاء مع أهلي، ويوم الخميس نتناول الغداء مع أهله، وباقي اليوم كان يصطحبنا إلى أماكن نحبها.

كنت أشعر بأني أسعد إنسانة في الدنيا والجميع يحسدني على ناصر. لكن كل هذا تغيّر بعد ما اشترى (كمبيوتراً) ووضعه في غرفة خاصةٍ داخل البيت.

تغيّر كل شيء فيه حتى طريقة كلامه وطريقة طعامه. تغيّر من جميع الجهات، تحوّل الحب إلى كره، وأصبحت وكأني عالة عليه. صرت مجرد إنسانة غريبة وأنا أعيش في بيتي وفي كنف زوجي.

حاولت بشتى الطرق أن أعيده لكن دون جدوى، فكان ينهرني إذا حاولت إيقاظه على الصلاة. كان يسهر طوال الليل ثم إذا أتى الصباح يذهب إلى عمله، وعندما يعود يتناول طعامه ويرقد جثة هامدة إلى منتصف الليل.

يصحو بعد منتصف الليل من سباته العميق ويتناول طعامه سريعاً، وفي أحيان كثيرة يشتمني ويهينني، ويستغل كل الفرص لينال مني وكأني عدوه اللدود.

ويذهب إلى غرفته الخاصة ويقفل الباب خلفه بالمفتاح وينظر نحوي ويقول لي بصوتٍ عالٍ: لا أريد إزعاجاً.. أفهمت؟!. مهما حصل لا تطرقي باب غرفتي.

بكيت وبكيت كثيراً لكن دون جدوى، شحب وجهي وتغيّرت ملامحي وبانت على وجهي ملامح الحزن والتعب والأسى.

سألتني أمي ذات يوم: بيان، ما بك؟! هل هناك مشكلات بينك أنتِ وناصر؟. قلت لها: لا يا أمي فقط أنا متعبة قليلاً، فرحت أمي وقالت: أكيد أنتِ حامل.

فعلاً اكتشفت أني حامل، لكن هذه المرة دون أي اهتمام من زوجي، وكأن أمر حملي لا يعنيه إطلاقاً. بعد أن أنجبت ابني ماجداً لم يجدّ جديد مع ناصر.

طلبت من أمي أن أبقى في بيت أبي لبعض الوقت لكن أمي رفضت بحجة أن أبي سوف يشك بالأمر، وأن الناس سوف يتكلمون ويختلقون الملايين من الإشاعات عليّ وعلى ناصر.

رجعت إلى بيتي ووجدت ناصراً أكثر إدماناً على الإنترنت من قبل، وساءت حالته وهزل جسمه من السهر الطويل أمام الكمبيوتر.

تكلمت معه ناصر: «انظر إلى نفسك أنت تقتل نفسك، إن ما تفعله هو مجرد انتحار بطيء».

تعجبت عندما قال: لا شأن لك بي!!

عندها عرفت أني على وشك فقدان زوجي، وأن ناصراً حبّي الوحيد سوف يضيع وأنا أقف مكتوفة اليدين. إلى أن مرض ذات ليلة ابني الكبير؛ إذ ارتفعت حرارته بشكل مفاجئ، حاولتُ إعطاءه المسكنات الموجودة في البيت لكن دون جدوى، فكلما أعطيته الدواء استفرغه فوراً.

ضاقت بي الدنيا، ماذا أفعل؟! هل أتصل بأمي؟ أم أطرق باب جيراني؟.

بعدها تذكرته حسبت أن لديه بعض الشفقة الأبوية على ابنه الصغير الذي لم يتجاوز السنتين بعد.

طرقتُ الباب بلطف لكنه لم يجبْ. طرقتُ الباب مراراً وتكراراً لكنه أبى أن يجيب. اتصلتُ على هاتفه المحمول ولكنه لم يجب أيضاً مع أني كنت أسمع صوت الهاتف يرن.

رجعت إلى طفلي وإذا هو يرتجف ارتجافاً رهيباً وحرارته تزداد ارتفاعاً.

طرقت الباب لكن هذه المرة بقوة وناديته بصوتٍ عالٍ: أرجوك يا ناصر تعال فوراً إن مشعل مريض جداً. أرجوك افتح الباب رجوته مراراً وتكراراً، لكنه خرج أخيراً ووجهه يتطاير منه شرار الغضب.

وأمسك بيدي وقال لي: ألا تفهمين أنتِ؟ مليون مرة قلت لك لا تطرقي الباب علي.

قلت: مشعل مريض، أرجوك لنذهب به إلى الإسعاف. كان يمسك الباب بيده اليمنى ويده الأخرى تمسك بي وتدفعني بقوة، وقال لي: لتذهبي إلى الجحيم أنتِ وولدكِ. وأغلق الباب خلفه دون مبالاة بما قد يحصل لولده.

هذه حياتي مع هذا الإنسان مع أنه أب ويجب عليه تحمل المسؤولية، بالإضافة إلى ذلك هو حبي الأول والأخير، ويجب أن أحافظ عليه مهما كانت النتائج.

لكنه غير مبالٍ لكل هذا، ويرفض دوماً أن يجلب لي ما أحتاجه ولو كان الغرض مجرد حليب لأطفاله. كل شيء يحضره بمزاجه فقط ولا يحب أن يُعطى أوامر من أحد على حسب قوله.

فكرت ماذا أفعل في منتصف الليل، وكيف أفسر للناس أن زوجي لا يريد أن يذهب بولده إلى أقرب طبيب؟!!

قررت أن لا أهينه أمامهم جميعاً، وأني سأحافظ على ما تبقى من ماء وجهه أمام الناس، واتصلت بالإسعاف.

أتت سيارة الإسعاف أمام بيتنا وأفاق الجيران من نومهم، وطرقت الباب مرة أخرى: أرجوك يا ناصر اذهب إلى الإسعاف ومعك الصغير. كيف أخرج أنا في منتصف الليل وحيدة؟! لكنه لم يبال بكلامي.

لم أصدق أن جارتنا اتصلت بي وقالت: ما الخبر يا بيان؟ هل أنتم بخير؟ سبحان الله جاءت مكالمتها لي وكأنها هدية من السماء.

أخبرتها أن الإسعاف ينتظر بالأسفل وأن زوجي مسافر وولدي مريض جداً.

هرولت المسكينة تسحب زوجها في منتصف الليل، وذهبنا بمشعل إلى المشفى، حيث عرفنا أنه يعاني من مرض غريب وهو وجود ماء في الرئة ويحتاج إلى عملية فوراً لسحب هذا الماء لكي لا يتكوَّن صديد في المستقبل.

وعندما سألتُ الطبيب عن سبب وجود هذا الماء أخبرني بأن الطفل كانت تأتيه حرارة مرتفعة جداً دوماً وأننا أهملناه بعدم عرضه على طبيب مختص مما سبّب له هذا الماء.

تكلّم معي الطبيب بتهذيبٍ وقال: تبدين إنسانة متعلمة ومثقفة، كيف تتركينه كل هذه المدة هكذا؟.

كان عليك أن تحضريه إلينا في حال استمرار الحرارة ولا سيما بعد أن أعطيته الخافضات ولم يستجب جسمه، واستمرت حرارته بارتفاع مضطرد.

لم أعرف بما أجيبه، وسكتُّ فقط.

هل أخبر الطبيب بسهر زوجي غير المبرر طوال الليل أمام الكمبيوتر واحتقاره لي ولأطفالي؟ أم أخبره عن غرفته الخاصة التي يقضي فيها أغلب وقته.

ليتك تعرف أيها الطبيب لماذا لم أحضره فوراً. بعد صمت قلت: المهم يا دكتور هل العملية سوف تنجح؟. قال: الأمل بالله كبير، إن شاء الله تنجح، الأمر بسيط إن شاء الله. قالها الدكتور بكل ثقة و طمأنني أن لا أخاف.

أما أنا فقد كان جسدي يرتجف من الخوف. إن مرض ابني غريب ولم أسمع عنه في حياتي كلها .

ألقيت نظرة إليه وهو يرقد على سرير أبيض وضممته بقوة إلى صدري إلى أن أتت الممرضة. وقالت: ممنوع يا سيدة، بكيت بحرارة إلى أن أمسكت بي جارتنا أم أحمد وقالت: توكلي على الله يا بيان. وزجها يتمشى في الممر أمام الغرفة ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف يسافر ناصر ويترك زوجته وابنه المريض؟!.

شكرت أم أحمد على وقوفها بجانبي في هذه الليلة التعيسة. وغادرت بعد اطمأنت على مشعل الصغير وأخبرتني أنها سوف تزورنا لاحقاً، وذهبت بصحبة زوجها.

جلست قرب مشعل والأجهزة محيطة بجسده الصغير وكلي ألم وحسرة عليه.

وبعد أن أخبرتني الممرضة أن حالته أصبحت مستقرة ذهبت مسرعة واتصلت بزوجي ناصر.

كانت الساعة الخامسة صباحاً لكنه لم يجب كالعادة حاولت مراراً وتكراراً دون فائدة.

لم أتصل بأهلي ولم أخبرهم حتى لا أصغِّر زوجي بأعينهم ولكي أحافظ على احترامهم له.

خرج ناصر من غرفته في الصباح ....

و عرف أني لست بالمنزل عندما لم يجد الإفطار بانتظاره كالعادة، بحث عني ولم يجدني وأطفالي؛ لأن ابني الصغير وضعته عند جيراننا أيضاً.

اتصل بأمي وأهلي وتكلّم عليَّ كلاماً بذيئاً لا يليق بأمثالي، ولم يترك كلمة قذرة إلا ألصقها بي. بل وحلف إن عدت إلى البيت فأنا طالق. ونسي أو تناسى ما فعله في الليلة الفائتة. وكيف كنت أقدم له الأعذار، وبعد أن فقدت الأمل في أن يجيب ناصر على الهاتف اتصلت بأمي وأخبرتها بأمر مشعل، تركت أمي كل شيء وجاءت مع أبي فوراً.

أما ناصر عندما خرج من المنزل وجد أبا أحمد زوج أم أحمد جارتنا يهم بركوب سيارته. نزل أبو أحمد من سيارته وقال له: أبو مشعل حمداً لله على السلامة سمعنا أنك مسافر.

استغرب ناصر وقال: مسافر لا لم أسافر أنا موجود.

استغرب أبو أحمد وقال: كيف موجود؟؟

زوجتك قالت لأم أحمد إنك مسافر، وفي منتصف الليل ذهبنا معها إلى المشفى..

لم يتركه ناصر يكمل حديثه وقال بدهشة شديدة: مستشفى!! أي مستشفى ولماذا؟.

قال أبو أحمد: غريب أمرك يا رجل، ألا تعرف أن ابنك يرقد بالمشفى؟! قال: ابني أي واحد منهم مشعل أم ماجد؟. قال أبو أحمد: هل أنت صاح يا ناصر، إنه ابنك مشعل ووضع يده على رأسه.

قال ناصر بلهفة: أي مشفى؟ وانطلق مسرعاً بالسيارة بعد أن عرف عنوان المشفى من أبي أحمد وكله خيبة وندامة. ويقول في داخله: «ليتني لم أهاتف أهلها وليتني لم أخبرهم بشيء».

وأخذ يلوم نفسه طوال الطريق إلى أن وصل فسأل موظفي الاستقبال عن غرفة مشعل فأرشدوه فانطلق مسرعاً.

وجد حماته أم زوجته بيان ترمقه بعينيه، وعمه والد زوجته. همّ مسرعاً وقبّل رأس حماته ووالدها وقال: بيان ماذا حصل. هل مشعل بخير؟

وأخذ يلمس شعر ابنه مشعلاً وكأنه شعر بواجبه كأب، ويقبله في كل مكان. وينظر إلى زوجته بيان بكل خجل وندامة.

لكن بياناً لم تبال بوجوده إطلاقاً ولم تتكلم بأي كلمة؛ لأن الرجل رمى عليها الطلاق.

لم يعرف ماذا يقول وكيف يختلق لنفسه الأعذار؟ أخذ هاتفه المحمول واتصل بشركته التي يعمل بها وأخبرهم بحالة ابنه وأنه لا يستطيع أن يأتي اليوم لعمله بحجة أنه سيبقى بجوار ابنه المريض.

أخذت حماته تتمتم بكلمات لا يفهمها أحد.. وتقول: الآن عرفت أن لك ابناً، يا لك من محتال، إن ابنتي خسارة أن تتزوج أمثالك. خير ما فعلت عندما رميت عليها الطلاق لكي تتخلص من هذا العذاب.

عرف ناصر أن الكلام موجه له فسحب كرسياً مجاوراً وقال بلطف: حماتي تفضلي اجلسي لقد أتعبناك معنا اليوم.

فانطلقت حماته كالصاروخ وأعطته كمية من الكلمات اللاذعة: «ومن لابنتي غيري، إذا لم أقف معها أنا من يقف معها؟».

أوقفها والد بيان بنظرة شديدة وقال: تعال يا ابني ناصر أريد أن أحادثك بموضوع.

عرف ناصر بالموضوع المراد، فرفض الذهاب بحجة أن مشعلاً أهم موضوع اليوم، ولنؤجل كل الموضوعات الأخرى.

قال والد بيان: بل الموضوع مهم أيضاً. تعال.

ذهب وعيناه تنظر إلى زوجته بيان وكأنه يراها لأول مرة بحياته إنها نظرة إعجاب بها. نظرة حب وفخر بأن هذه زوجته أو التي كانت زوجته سابقاً وتمنى أن تبقى زوجته إلى الأبد.

قبل أن يتكلم والد بيان قال ناصر: أرجوك يا عمي سامحني.. أنا جننت عندما لم أجد بياناً أمامي ولاسيما بعد أن بحثت عنها في أرجاء المنزل.

قال الوالد: وماذا تريدها أن تفعل في منتصف الليل وزوجها لاه، هل تترك ابنها يموت أمام عينيها؟ أنا أعرف ابنتي جيداً وأثق بها ثقة تامة. لكني ظلمتها عندما وافقت على زواجها بأمثالك.

نطق ناصر: عمي أرجوك ساعدني وكن عوناً لي، أنا أحب بياناً أرجوك ساعدني، صعب عليَّ أن أخسرها بهذه السهولة.

قال له: آسف يا ابني لقد طلقتها. نطق ناصر: إنها طلقة واحدة فقط. قال والد بيان: هذا أمر راجع لبيان، وإذا كانت بنت أبيها لن ترجع لواحد مثلك بتاتاً.

قال ناصر: لا يا عمي أرجوك اعتبرني كأحد أبنائك وساعدني بالموضوع قدر استطاعتك. نطق الوالد: سأحاول ذلك. لكن نصيحتي لك أن لا تتركها تواجه هذا الموقف وحدها، كن لها سنداً في هذه الأزمة المشتركة بينكما. أشعرها بأنك تحبها وتحب ابنك مشعلاً، تعرف النساء بنصف عقل يجوز أن تصفح عنك، قالها ضاحكاً.

نطق ناصر: فعلاً أنا أحبهم ولا أستطيع تركهم، كيف لا أحب زوجتي وأولادي؟!.

ذهب ناصر وأحضر ابنه الصغير ماجداً من عند الجيران واصطحبه معه إلى المشفى بعد أن ابتاع له لعبة جميلة وأخرى لمشعل، ولم ينسَ أن يحضر لبيان شكولاته؛ لأنه كان يعرف أنها تحبها جداً.

وجلس بالقرب منهما إلى أن غلبه النعاس؛ لأنه لم ينم طوال الليل كالعادة. قال لي: بيان هل تريدين شيئاً أحضره لك؟.

لم أجبه عن سؤاله وعاملته كأنه غير موجود إطلاقاً ....

أقبل نحوي وأمسك بيدي فسحبتها بقوة. قال ودمعة محتجزة في عينه: أرجوك سامحيني.

قلت له: لو سمحت لا يحق لك لمس يدي، إن أردت مكالمتي كلمني عن بعد. وليكن كلامك بالهمس وليس باللمس، ضحك ناصر من جديتي لكني لم أضحك بتاتاً.

قلت له: انتهى كل شيء بيننا، أنت طلقتني وأعتبر طالقاً إذا دخلت بيتك أليس هذا ما قلته لأبي وأمي اليوم صباحاً؟.

قال بضحكة غريبة: يعني مازلتي زوجتي شرعاً؛ لأنك لم تدخلي بيتي إلى الآن، سنسكن في فندق إذاً. أليس كذلك يا عمتي؟ قالت أمي: هذا أمر خاص ببيان فقط.

ثم همّ بالوقوف وقال لي: أرجوك انسي الذي مضى ولنبدأ حياتنا من جديد ولنفتح صفحة جديدة في حياتنا.

قلت له: كيف تفتح صفحة جديدة مع إنسانة متخلفة مثلي، نسيت كلامك لي سابقاً. كنت دائماً تجرح مشاعري بكلماتك اللاذعة، لا يا ناصر انتهى كل شيء.

جاء وهمس في أذني: أرجوك لا تشمتي أمك بي، أنا زوجك، حبيبك أعدك أني سأتغيّر.

خرج ثم رجع وقال: خذي هاتفي النقال سوف أتصل بك لكي أطمئن عليكما أنت وشعُّولي.

قلت له: لا نريد منك شيئاً، شكراً لك على ما قدمته لنا من تضحيات ولم أنظر إليه حتى. ثم كيف تتصل بنا وأنت سوف تغطُّ في سبات شتوي، قلتها وأنا مكتوفة الأيدي وناظرة نحو ابني ولم أنظر تجاهه إطلاقاً.

قبّل ناصر ابنه مشعلاً وقال: عمتي ما رأيك أن تبقي مع شعُّولي وتذهب بيان إلى البيت لترتاح قليلاً؟.

قالت له أمي: أنسيت أنك رميت عليها الطلاق في حال دخولها بيتك؟. فردّ: عمتي أرجوكِ إنها زلة لسان. قالت أمي: ليس في هذا الأمر لعب أو زلة لسان.

قال ناصر: لن أذهب بها إلى البيت سوف نذهب لفندق إلى حين أن نجد حلاً لهذه المشكلة.

قلت: أنا أريد البقاء مع ابني يا أمي اذهبي أنتِ إلى البيت.

عرض ناصر أن يصطحب أمي إلى البيت فرفضت أمي، وبعد إلحاح شديد وافقت.

خرج ناصر لم أستطع أن أراه يخرج حزيناً وهو يجر أذيال الخيبة وراءه. رقّ قلبي له وكأني نسيت معاملته لي وقلت: ناصر لا تنسَ أن تتناول طعام الغداء.

رجع ناصر مرة أخرى وهو مبتسم وكأن الأمل عاد إليه من جديد. «بيان أنا أحبك وأعرف أن قلبك كبير وسوف يصفح عن زلاتي السابقة».

كنت أتصنع اللامبالاة لكني لم أستطع ذلك، قلبي يحبه. استغربت أنه أوصل أمي إلى المنزل وجاء إلى المشفى بأسرع وقت ممكن بحجة أنه مشتاق لي ولشغُولي.

والحجة الأخرى: أنه لا يستطيع دخول البيت ولا يجدني أمامه.

والحجة الثالثة: أنه لا يعرف أن يتناول الغداء لوحده؛ لأنه اعتاد أن أشاركه ذلك دوماً.

نظرت له وأنا أخفي ابتسامة كادت أن تظهر دون شعور.

قلت في داخلي: يالك من محتال دخلت عن طريق نقطة ضعفي وهي حبي الكبير لك.

بقيت في المشفى ثلاثة أسابيع مع ابني مشعل؛ لأن الطبيب لم يسمح لنا بالخروج، لأن مرض مشعل عبارة عن فيروس معدٍ، ويصعب السماح لنا بالخروج حتى يتأكد من السيطرة على الفيروس في هذه الأثناء.

ذهبت أمي وجاءت ببعض الحاجيات لي ولأولادي من بيتي.

وجدت البيت مهملاً وفي حال يرثى لها، والأكثر من ذلك إهمال ناصر وملابسه التي وضعها بكل مكان.

قالت أمي له: كيف لبيان أن تتحمل كل هذا؟! يا لها من مسكينة.

قال ناصر: أرجوك يا عمتي ساعديني ولا تكوني عليَّ وكوني عوناً لي ومعي.

قالت: وما ذنبي أنا، بيان ترفضك وهي حرة في اتخاذ قرارها.

عندما كتب لنا الدكتور ورقة تسمح بخروج ابني مشعل وإنه في صحة جيدة.

استمات ناصر لصطحابي إلى بيتنا. لكني رفضت وذهبت لبيت أبي. جلب ناصر حاجياته ونزل في بيت والدي أيضاً بحجة أنه لا يستطيع إلا أن يرى أولاده يومياً وباستمرار أيضاً.

بل الأكثر من ذلك أنه كان يتصل بي بين الحين والآخر لكي أصنع له قهوة أو شاياً أو طعاماً وكأنه في بيته.

وزادت تعليقات أخواتي عليّ وقالوا لي: «زوجك غثنا اذهبي معه وفكينا».

رقّ قلب أبي له وطلب مني العفو والصفح عن ناصر؛ لأن ناصراً وعده أنه سوف يحافظ عليّ وعلى أولادي ولن يسمح بالذل لنا إطلاقاً.

رجع ناصر بعد ذلك لسابق عهده وواعدني أن يتحول إلى إنسان آخر وأن يكون عند حسن ظني به.

رجعت إلى بيتي مرة أخرى ولاسيما أن أهلي أرادوا ذلك مع معاملة شبه لائقة من ناصر.

عشنا بضعة أيام في وضع شبه مستقر، لكنه سرعان ما عاد إلى سابق عهده.

لكن هذه المرة لم أسمح أن يقفل الباب خلفه بل طلبت منه أن يعلمني على الكمبيوتر.

فعلاً علمني ووجدت متعة شديدة في ذلك، وكدت أن لا ألوم ناصراً على حاله سابقاً. لأني وجدت نفسي فعلاً دخلت إلى المنتديات باسم مستعار وكتبت موضوعات حازت على رضى الجميع.

كنت أنتهز الفرصة في حال خروج ناصر وأذهب فوراً إلى الكمبيوتر. كنت في قمة السعادة عندما أرى رسائل الإعجاب بموضوعاتي وبشخصيتي المتزنة.

لكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً؛ لأن ناصراً شعر بالغيرة علي ولاسيما أنه يعرف الباسبورد للبريد الإلكتروني؛ لأني لم أخفِ عنه شيئاً إطلاقاً وكلي ثقة بنفسي.

وعندما رأى رسائل الإعجاب كاد يجن حينها وطلب مني أن أترك المنتديات وأن أكون كمتصفحة فقط.

رفضت في البداية، لكني وافقت بعد أن اشترطت عليه أن يترك هو أيضاً السهر طوال الليل أمام الكمبيوتر. وإلا سوف أعود إلى المنتديات. ولاسيما أني استطعت أن أكوّن شخصية مرموقة في وقت قياسي جداً.

وكلي ثقة تامة بثقافتي وبرجاحة عقلي ويعرف هو ذلك، هو من كان دوماً يعيرني بجهلي. عرف اليوم أن أصحاب المنتديات يحاولون إقناعي بشتى الطرق كي أكون مشرفة في مواقعهم.

كان يقرأ الرسائل بغيرة شديدة، وبعدها قال: بيان، أريدك لي وحدي فقط؛ لأني أشعر أن المنتديات أخذتك مني ومن أولادي، وأريد أن أصارحك القول: إني أغار بل أنا غيور جداً.

قلت له: كن أنت لي وحدي أيضاً. وفي حال تنازلك سوف أتنازل أنا أيضاً.

استطعت بعد ذلك إعادة زوجي لي بعد ما سرقه الإنترنت مني مدة طويلة.

وعشنا حياة مستقرة... بعد أن ترك ناصر الإدمان وعاد لي من جديد.

كلمات ناقصة

أيقظتني امرأة ترتدي مريولاً أبيض. استغربت وخفت منها، إني لأول مرة أراها. قالت: إنها ممرضة وإني في المشفى.

صرخت بصوتٍ عالٍ: مَن أتى بي إلى هنا وماذا أفعل هنا.

أمسكت بي الممرضة بقوة وذهبت أخرى لكي تستعجل الطبيب.

جاء الطبيب مسرعاً وأشار بيده نحوي وقال لي: لا تخافي اهدئي اهدئي.

قلت له: من أنت من أنتم ماذا تريدون مني أنا ماذا أفعل هنا؟. أريدكم أن تشرحوا لي ذلك أرجوكم.

قال لي: سوف أشرح لكِ كل شيء في وقته لا تخافي، وأشار إلى الممرضة. وخرج فأمسكت بي واحدة والأخرى أعطتني حقنة مهدئة.

صرخت بقوة وقلت: أنا لست مريضة أرجوكم أخبروني ماذا حدث؟.

لكن سرعان ما خلدت إلى النوم بعد أن كانت أمواجاً من الأفكار تذهب وتأتي في مخيلتي.

بعدها بساعات صحوت من نومي حيث وجدت نفسي في غرفة مظلمة. فقلت بصوتٍ عالٍ «يا ترى لماذا أنا هنا ماذا حصل لي؟!».

وحاولت الوقوف لكني لم أستطع حيث كانت إحدى قدميّ فيها إصابة. جاءتني الممرضة وقالت لي: اصمتي، وطلبت الطبيب بسرعة.

جاء الطبيب وقال لي: كيف حالك اليوم؟ ما شاء الله اليوم أنتِ أحسن بكثير. قلت له بصوت منخفض: أرجوك يا دكتور أخبرني لماذا أنا هنا.

قال لي: أخبريني أنتِ بذلك.

قلت: أنا لا أعرف شيئاً إطلاقاً، أفقت من نومي فوجدت نفسي هنا. قال: فقط هذا ما تذكرينه؟. قلت: نعم.

وقف الدكتور وهمّ بالخروج فصرخت به: دكتور أرجوك أخبرني ماذا يجري؟. أعدت الأسئلة نفسها التي أطرحها دوماً عليهم لكن دون جدوى. بعدها جاءت الممرضة بسرعة وحاولت إعطائي حقنة مهدئة.

أمسكت بها وتوسلت عندها أن لا تعطيني الحقنة لأني بصراحة مللت من الحقن.

قالت لي: لا تصرخي بصوتٍ عالٍ فمجرد سماع صراخك يعني أنك ستحقنين بالإبرة المهدئة.

اتفقت معها أني لن أصرخ إطلاقاً، لكني فقط أريد أن أعرف سبب وجودي هنا.

جلست الممرضة بقربي وقالت لي: إنها لا تعرف شيئاً.

عرفت أن صراخي لن يفيدني شيئاً بل العكس الصحيح. سألتها بلطف عن قدومي وما سبب إصابتي أيضاً فجاوبتني بأنها لا تعرف.

كل ما تعرفه عني أنني مريضة فقط.

و لم يسأل عني أحد أيضاً مع أن المشفى أرسل تقريراً إلى جميع أقسام الشرطة وأن لي في هذا المشفى أكثر من أسبوعين.

زاد استغرابي وأشرت بإصبعي نحوي «من أنا؟!».

يا إلهي عرفت وقتها أني لا أعرف من أنا، وأن سؤالي كان غبياً جداً للدكتور وللممرضة. فكيف أريدهم أن يعرفوا من أنا وأنا لا أعرف نفسي ولا من أين أتيت.

ازدادت حالتي سوءاً وأخذتُ أبكي لكن الممرضة أعطتني الحقنة.

لم أصرخ كالعادة ولم أقل لهم أنا لست مريضة؛ لأني أنا مريضة وخطورة مرضي تبدأ من كوني لا أعرف نفسي.

أغلقت الممرضة نور الغرفة ثم أغلقت الباب خلفها وخرجت وخلدت أنا إلى سبات عميق.

بعد أن أفقت وجدت نفسي محاطة بكم هائل من الأطباء والممرضات وأجهزة محيطة بي من جميع الجهات.

الجميع فرح عندما فتحت عيوني ونظروا لي وقالوا: «أفاقت أفاقت أخيراً».

علمت بعدها أني كنت لأسبوعين متتالين في سبات عميق.

خرج الجميع من الغرفة ولم يبقَ سوى الطبيب والممرضة.

ضحك الطبيب وقال لي: لقد أشغلتيني عليك واضطررت أن أجلب لكِ كل الأطباء والاستشاريين في المشفى والمستشفيات المجاورة أيضاً لكي تقرر وصفك وما سبب انتكاس حالتك المفاجئ.

نظرت إلى الطبيب وتذكرته. قلت: نعم أنت الطبيب المسؤول عن حالتي. نظرت إلى الممرضة وقلت لها: نعم أنتِ التي تناوليني دوائي وطبعاً لم أنسَ الحقن المهدئة.

كنت أشعر أن هذين الاثنين هما أكثر المقربين لي في المشفى، وهما كل ما أعرف بل لا أعرف سواهما.

أحسست أني كنت أعرفهما منذ زمن بعيد، وعرفت أني لم أرَهما بعد أن ساءت حالتي مع أنهما كانا بقربي ليلاً ونهاراً مدة أسبوع حيث كنت في حالة غريبة تشبه الغيبوبة.

قال لي الدكتور: نجود. نظرت إليه دون أن أتكلم، كررها مرة أخرى قال: نجود. نظرت إليه بسرعة.

قال: تعرفين أحداً باسم نجود؟ نظرت إليه بصمت.

قال لي: حاولي أن تتذكري أي شيء. أخذت أنظر يميناً ويساراً وكأني أبحث عن شيء أفقده. وأردد: نجود نجود. قلت: لا أعرف بصوتٍ عالٍ. قال لي الدكتور: اهدئي لا تصرخي.

قلت له: لا لن أصرخ أنا هادئة جداً أرجوكم لا تعطوني إبرة مهدئة. ضحك الدكتور وقال: عرفنا نقطة الضعف لديك إنها الإبرة المهدئة.

همّ الدكتور بالخروج. قلت له: أرجوك لا تذهب. أنت الوحيد الذي يتكلم معي هنا.

قال لي: طبعاً لأني أنا طبيبك المعالج وأنا المسؤول عن حالتك. وطبعاً لابد لي بالخروج؛ لأن لدي حالات أخرى غيرك مسؤول عنها أيضاً. ولستِ أنتِ الوحيدة، ولكني سوف أجلس معك بعد انتهاء الجولة الصباحية على المرضى.

فرحت جداً لأنه سوف يجلس معي بعض الوقت أخيراً، وجدت من يتحدث معي، كانت فرحتي كبيرة للغاية.

بعد وقت أحسبه طويلاً جاء الدكتور وقال لي: ها يا نجود ماذا تريدين مني؟.

قلت: أنا نجود؟!.

قالها ضاحكاً: كل ما قلتيه في أثناء الغيبوبة تدل على أنك نجود.

قلت: أرجوك أخبرني ماذا قلت؟.

قال لي: لا أستطيع، هذه من أسرار المهنة التي لا يجب أن أخبر بها أحداً، سوف أخبرك كل شيء في وقته.

قلت: أنا نجود. ونظرت إلى نفسي وكأني وجدت نفسي، قلتها مراراً وتكراراً كي لا أنسى فيما بعد نجود نجود نجود.

ضحك الدكتور. وقال لي: سوف أتركك مع نجود لعلك تتذكرين شيئاً، كنت أريد أن أقول له: لا تذهب. لكني قررت أن لن أطلب منه ذلك.

لكنه نظر إلي وقال لي: أحس أنك إنسانة متعلمة ومثقفة. قلت له: كيف عرفت ذلك. قال: من طريقة كلامك وتعاملك.

وخرج.

كانت كلماته كوسام لي عرفت اليوم أني نجود وأني متعلمة ومثقفة. كأني وجدت كنزاً حينها.

بعدها جاءت الممرضة واصطحبتني إلى العيادة على كرسي متحرك وأدخلتني إلى طبيب آخر، أول مرة أراه في حياتي، أقصد مدة وجودي في المشفى.

عرفت أنه سوف يفك الجبس عن قدمي وأني أستطيع أن أتحرك بكل حرية.

بعدها أعادتني الممرضة إلى غرفتي، وقلت لها: أرجوك اطلبي الدكتور لي.

نظرت إلي، وكشرت عن أنيابها، وقالت: «لا، لا يوجد دكتور، الدكتور قد ذهب منذ زمنٍ».

سألتها بلهفة: متى يأتي؟. أخبرتني أن دوامه انتهى. وأنه غداً سوف يراني صباحاً.

حاولت أن أستفسر منها أكثر. لكنها نهرتني. وقالت لي: اعرفي نفسك أولاً ثم تعرفي على حياة الدكتور.

كانت كلماتها جارحة لكن معها حق. أنا لا أعرف نفسي كيف أسأل عن الدكتور؟.

مر باقي اليوم بطيئاً جداً ولم أستطع النوم خلال الليل.

وفي الصباح جاء الدكتور ورآني نائمة. وأكمل باقي جولته الصباحية ولم يحاول إيقاظي.

جاءت الممرضة وقالت: أنتِ لم تتناولي وجبة الفطور اليوم؛ لأنك كنت نائمة ولم نحاول إيقاظك. وطلبت لي وجبة فطور.

طبعاً رفضت الطعام ورفضت العلاج أيضاً.

خرجت وتركتني.

لكني لم أتناول شيئاً إطلاقاً، ثم جاءت التي تعمل على نقل الطعام وذهبت به وقالت لي: لماذا لم تتناولي شيئاً؟ لكني لم أجبها بشيء وفضلت البكاء على هذا.

نظرت إلي الممرضة من خلال الباب. وقالت بضحكة: «أنت مجنونة كثيراً» وهي على حالها، وإذ بالدكتور يدخل علينا وقال لي: «السلام عليكم يا نجود».

سكتت الممرضة وكأنها لم تقل لي شيئاً بل أخذت تتودد لي بشتى الطرق.

قال: عرفتني أنا الدكتور راشد، قلت: راشد. قال: نعم اسمي راشد. لكن ماذا تلاحظين علي. نظرت إليه وقلت: أنت الدكتور. قال لي: غير ذلك. انظري إلى مظهري تغيّر أم لا؟.

قلت: نعم إنك ترتدي ملابس لم أعهدك ترتديها سابقاً.

قال لي بضحكة: هذه ملابس ألبسها خارج المشفى، أما التي كنت تريني فيها دوماً هي ملابس الطبيب، أنا هنا اليوم كزائر وليس كطبيب.

قررت أن أكون أحد أقربائك مؤقتاً إلى أن تجدي أقرباءك، وسوف أزورك بين الحين والآخر وأتبادل معك أطراف الحديث.

لم أصدق ذلك، ابتسمت ابتسامة عريضة. وبعدها بثوانٍ دخلت الممرضة وقالت: نجود. قلت: نعم. قالت: وصلتك باقة زهور من صديق.

أعطتني الباقة والدكتور راشد ينظر نحوي باهتمام شديد، أخذت البطاقة الموجودة عليها. وأمسكتها بيدي والدكتور ينظر نحوي لكني لم أستطع قراءتها وألقيت بها على طاولة بجانب سريري.

قال لي: من أين أتتك باقة الزهور؟. قلت: لا أعرف. قال: ألم تقرئي البطاقة الموجودة عليها؟.

قلت: لا.

قالها لي بحنان: نجود أرجوكِ حاولي، إن طريقتك في مسك البطاقة تدل على أنك تعرفين القراءة.

ناولني البطاقة مرة أخرى وقال لي: حاولي حاولي. لكني لم أستطع. قلت: لا لا أستطيع، لا أعرف ما كتب عليها.

بكيت بصمت قال لي: لا تبكي هذا أمر عادي، ناوليني البطاقة أنا سوف أقرأها لكِ.

أمسك بالبطاقة وقال ضاحكاً: كُتبَ عليها حمداً لله على السلامة اشتقت إليكِ جداً.

أمسكت باقة الزهور بيدي وضممتها إلى صدري، كنت فرحة بها للغاية، حتى إني نسيت أن الدكتور راشداً موجود إلى أن فاجأني بصوته يقول لي: تحبين الزهور؟.

استغربت من كلمة زهور، قلت: زهور؟ قال لي: نعم هذه. وناولني وردة وقال: هذه اسمها زهرة. والباقة كلها زهور.

قلت: نعم أحب الزهور. قلت في داخلي: «عرفت شيئاً جديداً إنه زهور».

نظرت إلى الزهور ثم إلى الدكتور، لا أعرف ما أصابني حينها. قلت للدكتور: أنت تحب الزهور؟

قال: ومن لا يحب الزهور؟! طبعاً أحبها.

قلت له: دكتور. فقاطعني بسرعة. و قال لي: أنا هنا زائر ولست طبيباً قولي لي راشد فقط.

قلت: راشد. نظر نحوي بلهفة. وقال: انطقيها مرة أخرى إنها جميلة جداً عندما خرجت منك.

قال: انطقي كلمة راشد. قلت: راشد. ضحك ضحكة غريبة.

وقال: الله عليك يا نجود أمرك حيرني. قالها ووضع رأسه خلف يده وأخذ ينظر إلى الأعلى. ثم نظر إلى الساعة.

قال: قارب وقت الزيارة على الانتهاء، أخذ سماعة الهاتف وقال: أحضروا لنجود وجبة الغداء بسرعة. وقال لي بعطف: لماذا لم تتناولي وجبة الفطور؟.

لم أعرف بما أجيبه.

لكني قلت له: إني كنت نائمة ولم يوقظني أحد، فطلب الممرضة فوراً وأخذ يؤنبها بكم هائل من الكلمات.

قال لي: والعلاج، قلت: لم أتناول العلاج أيضاً.

قالت له الممرضة: دكتور هذه مجنونة ولا تعرف شيئاً لقد تناولت العلاج.

لكني لم أرَه كهذا من قبل، احمر وجهه بسرعة وقال لها: أنتِ من اليوم لستِ مسؤولة عن نجود إطلاقاً. نجود ليست مجنونة بل أعقل منا جميعاً. نظر نحوي وقال لي: آسف.

قطعت وقت الزيارة عليك ونسيت أني زائر ولست طبيباً.

بعدها نظر إلى الساعة، وقال: يااااه مرَّ الوقت بسرعة. عرفت أنه سوف يغادر فعلاً.

قال لي: في أمان الله سوف أزورك لاحقاً إن شاء الله.

خرج من الغرفة بينما انهمكت أنا مع الزهور الجميلة ذات الرائحة الفواحة.

وإذا بالممرضة الشريرة عند رأسي وتقول لي: إن الطبيب يشفق عليك فقط لا غير.

لم أنظر إليها بل كنت أنظر إلى زهوري الجميلة.

دخلت المرأة المسؤولة عن الطعام وقالت لي: إن الدكتور راشد طلب منها أن تأتي لي بالطعام. وأن توافيه بالنتائج فوراً في حال رفضي للطعام.

كنت سعيدة للغاية لأنه يوجد من يهتم بي. تناولت الغداء وبعدها العلاج بكل سرور، ثم جاءت بعدها ممرضة أخرى وتكلمت مع الممرضة الشريرة بضع كلمات. كانت تنظر نحوي نظرة غريبة.

عرفت بعدها أنها تخبرها كل شيء عني؛ لأنها سوف تستلم مكانها بما أن الدكتور راشداً اختار للإشراف عليّ ممرضة أخرى.

كانت هذه الممرضة تأتيني خلال النهار، وفي الليل تأتي ممرضة أخرى لكني لا أراها كثيراً لأنني كنت أخلد إلى النوم.

في الصباح اصطحبتني الممرضة إلى العيادة لكي يرى الدكتور قدمي بعد فك الجبس عنها. لكني مازلت أشعر بألم بسيط، فأمرني الدكتور أن أرجع مشياً على الأقدام؛ طبعاً بمساعدة الممرضة.

أمسكت بي الممرضة وحاولت الوقوف لكني لم أستطع، وبتشجيع من الجميع وقفت. وحاولت المشي، وفعلاً مشيت ببطء إلى أن وصلت، وإذا بالدكتور راشد قد رآني فقال لي: ما شاء الله كلها أيام قليلة وتتعافين تماماً، لكن نريد مساعدتك في هذا الموضوع.

رافقنا الدكتور راشد إلى الغرفة حتى وصلت وأنا منهكة تماماً. وقال لي: ها يا نجود هل تذكرتي شيئاً؟ قلت: لا أعرف شيئاً بتاتاً.

قال: اطمئني سوف تتذكرين كل شيء وتتسيننا جميعاً، ونظر إلي نظرة حزينة وأخذ قلماً من جيبه وقال لي: خذي، أعطاني ورقاً وقال لي: تسلي بأي شيء.

لكن أريد أن أرى ماذا تصنعين بالقلم والورق، وأريدك أن تريني ما صنعت بهما اتفقنا.

خرج الدكتور راشد من الغرفة فأمسكت بالقلم ورسمت نخلة في وسط الصحراء. ذهبت الممرضة مسرعة وأخبرت الدكتور بالأمر.

فجاء مسرعاً وأخذ الورقة ونظر إلي قائلاً لي: تماماً هذا ما أريده.

أرجع الورقة لي وقال: سوف أعود لك لاحقاً لكن لا تمزقي الورقة. مرت بضع ساعات والدكتور لم يأتِ شعرت بالملل الشديد. أخذت القلم ورسمت مكعبات ومستطيلات وأشكالاً هندسية معقدة.

بعدها جاء الدكتور لكنه بالزي المدني هذه المرة حاملاً بيده حقيبة مزخرفة. طبعاً عرفت أنه حان وقت الزيارة. قلت له: دكتور أم راشد؟ قال: لا راشد.

نظر نحوي وقال: لا تخيبي ظني فيك أشعر أنكِ تخفين وراءكِ إنسانة ذكية جداً. ونظر إلى الورقة الملقاة ثم التقطها بسرعة وقال: آها رسمتِ لوحة أخرى.

وأخذ ينظر إلى الورقة ثم ينظر نحوي وقال: تواجهك مشكلات كثيرة لكن حاولي التغلب عليها. واعلمي أن حالتك هذه حالة عرضية فقط وسوف تعودين لحياتك الطبيعية قريباً جداً.

ثم أخرج لي أغراضاً كان قد اشتراها لي وعلمني كيف أستعملها.

كانت هذه الأغراض أدوات للرسم، ريشةً وألواناً وغيرها من الأدوات. علمني كيف أمزج الألون لكي أنتج لوناً جديداً، علمني ذلك شفهياً ولم يطبّق أمامي الأمر.

مرّ الوقت بسرعة إلى أن نظر إلى ساعته. قلت له: انتهى وقت الزيارة؟ قال لي: مع للأسف نعم.

خرج الدكتور وانهمكت أنا بأغراضي ولوحاتي حتى إني لم أنم إلى وقت متأخر، كانت الممرضة تأتي وتذهب وتقول لي: يكفي سوف أغلق النور. وأنا أرجوها أن لا تفعل. إلى أن قالت لي: إن الدكتور سوف يغضب إن لم أنم الآن.

فعلاً سمحت لها بأن تطفئ النور ونمت مرتاحة البال. واستيقظت مبكرة كالعادة.

وجاءت صاحبة الطعام بالفطور وقالت لي: اليوم تبدين في أحسن حال يا نجود.

تناولت الفطور وبعدها العلاج وانتظرت مجيء الدكتور وجولته الصباحية. لكن الدكتور لم يأتِ، وجاء دكتور آخر لكني لم أسمح له بأن يكلمني وألقيت بغطاء السرير على رأسي.

لم يحاول الدكتور الجديد أن يجبرني على الكلام معه. لكنه تكلم مع الممرضة كلمات بلغة لا أفهمها وخرج بسرعة دون أن يحاول إزعاجي.

سألت مراراً وتكراراً «أين الدكتور راشد ولماذا لم يأتِ؟. كيف استطاع

أن يتركني هكذا وما مصيري أنا وما مصير لوحاتي التي رسمتها؟!».

ذهبت إلى لوحاتي ومزجت عدة ألوان وطليتها بها. حاولت الممرضة أن تمسك بي وتمنعني. لكنني صممت أن أمزق كل شيء، حتى الزهور أخذتها ومزقتها.

طلبت الممرضة الدكتور بسرعة.

فجاء الدكتور مسرعاً وحاول أن يكلمني لكني لم أنطق بكلمة واحدة، ولم أعطِهِ أي اهتمام.

أعطتني الممرضة إبرة مهدئة وخلدت إلى النوم.

بعدها أفقت من نومي، وإذا بالدكتور راشد يلملم أوراقي وزهوري وينظر إلى لوحاتي بتمعنٍ ثم التفت نحوي ولم يتكلم بأي كلمة.

لم أعرف ما أقول له شعرت بالأسى والحزن في عينيه، جلس على كرسي مجاور بقربي وقال: أتلفت حتى الزهور؟!

قلت له: لا أعرف ما أصابني عندما رأيت طبيباً آخر غيرك. لم أستطع أن أضع عيني في عينه. كنت في قمة الخجل من تصرفي الأحمق.

قال: يجب أن تعتادي على هذا الأمر؛ لأنه في حال خروجك لن تريني نهائياً. قلت له: كيف ذلك ولماذا لا أراك؟.

قال: لأنك سوف تنسين كل شيء الآن، حالتك هذه هي شيء عارض في حياتك الطبيعة، وسرعان ما ستعودين إلى وضعك الطبيعي.

قال: أنا أفعل ذلك من أجلك يا نجود. قالها: بأسى وحزن كان ظاهراً في عيونه.

بعدها ساءت حالتي النفسية كثيراً ولم أعد أتكلم نهائياً ولاسيما بعد أن تركني الدكتور راشد وأشرف على حالتي دكتور آخر، وتمنيت أن أبقى على حالتي هذه وأن لا أشفى إطلاقاً.

وكأنني كنت أهرب من حياتي الحقيقية وفضّلت أن أبقى فاقدة الذاكرة للأبد وطريحة الفراش في المشفى.

لكن الدكتور راشداً كان يطمئن عني عن بعد. وبعد أن عرف أن حالتي ساءت اضطر إلى العودة إلي، بل زاد اهتمامه بي أكثر وشعر بأنه مسؤول عني وعن حياتي كلها وغمرني بالاهتمام.

قلت له: أريدك أن تجلب لي ورقاً وقلماً جديداً ولن أكسره إطلاقاً، ولن أمزق أوراقي مرة أخرى بشرط أن لا تتركني حتى أتعافى تماماً.

فعلاً أحضر لي قلماً وأوراقاً وكراساتٍ وألواناً.

مرّ اليوم بسرعة. وعندما أتى الليل أخذت القلم وكتبت قصتي وأنا في المشفى من البداية إلى يومي هذا.

كلها كتبت بكل طلاقة وكأني كنت أعرف الكتابة منذ زمن بعيد.

كتبت عن راشد وعطفه واهتمامه بي، كتبت عن لوحاتي كل شيء.

لكن كان محور كتاباتي عن الدكتور راشد لكي لا أنساه بعد رجوع الذاكرة لي؛ لأن راشداً إنسان لا ينسى إطلاقاً.

كانت الأيام تمر بسرعة كبيرة، تعرفت على الدكتور راشد عن قرب، عرفت أنه غير متزوج، وأن والدته تحاول إقناعه ببنت خالته وهو كان يرفض بشدة بحجة أنه يريد إنسانة تفهمه وتفهم أفكاره.

تحسنت حالتي بشكل ملحوظ لكنني لم أتذكر شيئاً إلى الآن.

إلى أن أتى يوم من الأيام وكنت أستعد لوقت الزيارة وإذا برجل كبير في السن يمشي ببطء كان يضع رباطاً على رأسه ويحمل عصا بيده. عندما رأيته صرخت خائفة وأمسكت بالممرضة وقلت لها: أرجوكِ لا تتركيني إني خائفة جداً.

قال الرجل بصوت هرم: نجود أخيراً وجدتك، لم أصدق ذلك، إنه يعرف اسمي أيضاً.

أخذت أصرخ وأصرخ أنقذوني أرجوكم.

أخرجت الممرضة الرجل بسرعة وأنا أصرخ وأصرخ وأرتجف من الخوف. إلى أن أعطوني حقنة مهدئة بعد ما مر وقت طويل من آخر إبرة مهدئة أخذتها.

أفقت في ساعة متأخرة من الليل وأنا أصرخ لا أرجوكم أبعدوه عني.

وإذا بالممرضة توقظني وتقول لي: لا تخافي نحن معك، فشعرت بحنان رهيب وغريب لأول مرة أشعر به.

كان منبع الحنان من يدي، من يمسك بيدي يا ترى؟! فنظرت إلى الجهة الأخرى لكي أرى من يمسك بيدي. كنت مترددة جداً لكني نظرت بسرعة ولم أصدق نفسي إنه الدكتور راشد.

كان ممسكاً بيديه الاثنتين بيدي قال مبتسماً: لا تخافي أنا معك ولن أتركك أبداً. لم أصدق نفسي، بكيت بحرارة قال لي: لا تبكي أنا معك، أخبريني. بماذا كنتِ تحلمين؟.

قلت له: إنه كابوس فظيع الحمد لله، إنه ليس حقيقة وأنت معي الآن. وسألته: لماذا أنت هنا الليلة؟؟

قال: لم أشأ أن أتركك لوحدك سيما بعد أن ساءت حالتك اليوم. أمسك بكأس ماء أحضرته الممرضة وقال: أنا أسقيها الماء.

سقاني كأس الماء وكأنني طفلة صغيرة، وجلس بالقرب مني طوال الليل. إنه يهتم بي اهتماماً كبيراً.

كنت أكلم نفسي وأنظر إليه، وبينما أنا كذلك لفت انتباهي الدفتر الذي كان بقربه. إنه دفتر مذكراتي بالمستشفى لقد عرف مدى حبي له.

نظر إلي وابتسم وقال: تعرفين الكتابة ولم تخبريني بذلك إلى أن اكتشفت الحقيقة بنفسي، وقفت عند كلمة الحقيقة وقلت له: هل الرجل الشرير من أقربائي؟.

ضحك راشد وضحك ووضع رأسه على يديه ونظر إلى الأعلى. وقال لي: سميته الرجل الشرير إذاً؟

قلت له: نعم. إنه هو من كان يسحبني بقوة وأنا أستغيث بك، هو الذي رأيته بالكابوس الفظيع.

نظر الدكتور راشد إلي وكأن دمعة تلمع في عينيه وقال: لا تخافي أنا معك.

أخـذت الأفكار تدور في رأسي لماذا لم يجـبني عن سـؤالي؟ هل الرجل الشـرير من أقـربائي حقـاً؟ لماذا أنا أكـرهه؟ لماذا ساءت حـالتي عندما رأيته ؟

إلى أن قاطعني الدكتور راشد وقال: نحن هنا!!

وكان يمسك بالدفتر في يده وقال لي: تعرفين خطك يشبه خطي كثيراً وحتى أسلوبك يشبه أسلوبي في الكتابة. ثم وقف وقال لي: أنا سوف أذهب لأرتاح قليلاً أراكِ غداً، سوف آخذ دفتركِ معي أموافقة؟ أشرت له برأسي إني موافقة.

أطفأت الممرضة النور وخرجت، لكني لم أنم إلى أن رنّ الهاتف بقربي. أول مرة يرن بساعة متأخرة جداً، رفعت السماعة وإذا بصوت حزين وقال لي: نجود. هل ما كتبته في الدفتر نابع من قلبك؟ لم أعرف بماذا أجيب لكني قلت: نعم، دون شعور.

قال: أنتِ تقولين ذلك لأنك فاقدة الذاكرة لكن عندما تعود إليك الذاكرة سوف يتغير كل شيء. أعرف أني دكتور معالج لحالتك وأن واجبي هو معالجتك فقط. وليس من حقي مطالبتك بعدم نسياني.

قلت له: إذاً لا أريد لذاكرتي أن تعود إن كان ثمنها هي نسيانك إلى الأبد. مستحيل أن أنساك يا دكتور راشد وأنا واثقة من ذلك.

قال بصوت حزين: والرجل الشبح الذي أخافك ماذا تفعلين به؟

استغربت وقلت: ما دخل الرجل الشبح في حياتي، قال بصوت حزين: أراك غداً، نجود نامي الآن أراكِ غداً، أغلقت سماعة الهاتف وفكرت طويلاً بكلامه إلى أن غلبني النوم.

عندما صحوت من النوم وجدته أمام عيني يقول لي: صباح الخير. لم أصدق نفسي، قلت: صباح النور متى أتيت؟

قلت: هل أنا مازلت فاقدة الذاكرة. قال لي: نعم لحد الآن، لكن بعد قليل لا أعرف ماذا سيحصل.

قلت له: أرجوك لا تتركني مهما حصل أنا بحاجة لك، لا أتخيل أن أعيش دونك. لا أتخيل أن يمر يوم ولا أراك فيه لا تتركني أرجوك كررتها عدة مرات.

قال لي: سوف أبوح لك بسر خطير أيضاً.

قلت بلهفة: ما هو؟. قال لي: أنا أحبك، أنتِ الإنسانة التي كنت أبحث عنها طوال حياتي ومستحيل أن أنساكِ، وأنتِ الوحيدة التي ملكت عقلي وقلبي معاً.

كانت كلماته كبلسم شافٍ لجميع جراحي. قال لي: اليوم أصعب يوم يمر في حياتي كلها لأني لا أعرف ماذا سيحصل فيه؟. أجمل أيام حياتي وأنا أراك تتعافين، لكن أصعب لحظات حياتي وأنا أفقدك للأبد.

كانت كلماته حزينة جداً ويكاد يبكي، صوته حزين للغاية وكأنه يودعني الوداع الأخير.

تذكرت الدفتر وقلت له: أين دفتر مذكراتي؟ قال: سوف أحتفظ به سوف أعتبره ذكرى منك. وخرج مسرعاً من الغرفة.

أخذت ورقة وكتبت أنا نجود وبكامل قواي العقلية أقول إن الدكتور راشداً يحبني كما أحبه ودفتري عنده يحتفظ به يجب أن لا أنساه مهما كان. احتفظت بالورقة في مكان لا يخطر على بال أحد.

بعدها دخل علي الرجل الشبح وصرخ: نجود ابنتي أنا أبوك لا تخافي مني. تذكري عندما اصطدمنا بشاحنة على الطريق السريع. نجود تذكري أنك جئت معي كي تقدمي رسالتك للماجستير.

نجود تذكري الحادث، كانت الممرضة تمسك بيدي وتحاول إيقافي؛ لأني كنت أحاول الهروب وأنا أقول: لا لا.

والدكتور راشد يقف بعيداً وينظر نحوي بعدها. سقطت مغشياً علي. عندما استيقظت، كنت إنسانة ثانية، ولم أعرف أين أنا، لكن النظرة الاستكشافية الأولى على المكان عرفت أنها مشفى.

قلت: أين أنا؟ وجدت أبي بجانبي صرخت: أبي ماذا حصل لك ما هذه الإصابات؟.

جاء الدكتور مسرعاً نحوي وقال لي: مبارك لقد عادت إليك الذاكرة، هل تذكرينني؟

لم أعرف ماذا أفعل تواريت خلف ظهر أبي. وأنا أهمس كيف يدخل الدكتور هكذا دون أن يستأذن؟ إنه أسلوب غير حضاري إطلاقاً.

قال الدكتور (بعدما سمع ما كنت أتمتم به): عفواً أنا الدكتور المعالج.

قلت وأنا أختفي خلف أبي: ولو كنت الدكتور المعالج لا يحق لك رؤيتي بهذا الشكل، وأخذ أبي الى زاوية وتكلم معه، وقال: لقد انتهى دوري الآن، وأنا أسلمها لك سليمة معافاة تماماً، ولي زيارة لكم عما قريب إن شاء الله انتبه عليها جيداً، وقال دون أن ينظر نحوي: حمداً لله على السلامه يا أخت نجود.

وخرج ...

أحضر أبي عباءتي وغطاء وجهي وخرجت برفقته من المشفى، وصلنا إلى الشقة التي كنا قد استأجرناها فور وصولنا لمدينة الرياض، وجدت ملابسي وأوراقي وكل شيء كما تركته.

عندما ذهبت أبدل ملابسي سقطت مني ورقة قرأتها، إنها الورقة التي كتبتها في أثناء فقداني للذاكرة: (أنا نجود وبكامل قواي العقلية أقول إن الدكتور راشداً يحبني كما أحبه، ودفتري عنده يحتفظ به يجب أن لا أنساه مهما كان).

قلت بذهول شديد: راشد. من راشد؟ ولم أبالِ بذلك.

إنه مجرد كلام فارغ لا صحة له وضحكت كثيراً على كلمة بكامل قواي العقلية.

حبك عار

عندما كنت في الثالث الثانوي كانت لدي صديقة، كانت هذه الصديقة هي أعز صديقاتي، كانت بالنسبة لي ليست مجرد صديقة بل أخت أيضاً، وبما أنني البنت الوحيدة بالأسرة بين الأولاد كانت أسماء في مثابة أختي فأنا أستشيرها بكل شيء وهي كذلك.

كانت ترافقني من الأول الابتدائي إلى أن وصلنا المرحلة الثانوية، كانت في مستواي العلمي والفكري والثقافي نفسه عموماً، ولديها اهتماماتي نفسها، وكثيراً ما كانت تزورنا في المنزل، أما أنا فلم أزرها في منزلها إطلاقاً.

بعدها تخرجنا من الثانوية العامة دخلت أنا تخصصاً يختلف عن تخصص أسماء، ولكن كنا معاً في الجامعة نفسها، كنت قليلاً ما أراها ولكن أكلمها من خلال الهاتف، كانت أسماء تعيش في أسرة فقيرة جداً، وأهلها يسيطرون سيطرة غير طبيعية، حتى إنها لا ترد على التلفون إذ يجب على أحدهم أن يرد قبلها ويتأكد أن التي تريدها فتاة.

كنت أعرف ظروف أسماء منذ صغري، وطالما حاولت مساعدتها بشتى الطرق، لكن الأمر تغير بعد تفرقنا في الجامعة.

كنت كلما طلبتها في الهاتف يرد علي أخوها الكبير ويتأكد من أني صديقتها رنا، حتى إنه صار يعرف صوتي فمجرد سماع صوتي يقول: تعالي يا أسماء إنها صديقتك رنا.

كان هذا الشيء يضايقني جداً ولاسيما أن رقم بيتنا يظهر عندهم في كاشف التلفون.

كان تخصصي صعباً جداً و دائماً أشكو لأسماء عن صعوبات المواد ولاسيما البحوث.

كانت السنة الأولى صعبة للغاية، لكنها قالت لي: رنا إن أخي سالماً كان يدرس في التخصص نفسه، وأي شيء تريدينه يمكنه مساعدتك فيه.

فرحت جداً، طلبت بحثاً فاجتهد سالم في عمل بحث متكامل لي حتى إنه حاز على رضا الأستاذات في الجامعة ونلت درجة عالية عليه.

اتصلت بأسماء لكي أخبرها بالبحث، فردّ علي سالم ولكنه هذه المرة لم ينادِ أسماء بل أخذ هو بالتكلم معي ويمتدح لي نفسه.

سالم: ها بشري يا رنا، كيف كان البحث؟

رنا: الحمد لله لقد نال إعجاب أستاذة المادة شكراً لك، هل يمكن أن تعطيني أسماء؟.

سالم: إذا كنت تريدين أي بحث في المستقبل أنا جاهز لا تنسي أن هذا كان تخصصي سابقاً.

رنا: ما شاء الله إنك مبدع حقاً هل يمكن تنادي لي أسماء.

أخيراً سالم قال: أسماء رنا تريدك.

أسماء: رنا كيف حالك كيف كان البحث؟.

رنا: الحمد لله لقد نال إعجاب أستاذة المادة بل كان أفضل بحث من بين البحوث.

أسماء: ألم أقل لكِ إن سالماً مبدع لكن حظه عاثر.

رنا: لماذا؟ إنه شاب ذكي ومتخرج من الجامعة لماذا حظه عاثر؟.

أسماء: لأنه لم يجد عملاً حتى الآن.

رنا: غريبٌ فعلاً.

خطرت على بالي فكرة، قلت بسرعة: أسماء لماذا لا يذهب ويعمل عند أبي؟ سوف أكلم أمي عن الأمر.

أسماء: أتمنى ذلك شكراً شكراً لك يا رنا.

وبسرعة أغلقت سماعة الهاتف وانطلقت مسرعة إلى أمي، وكانت أمي تعرف مسبقاً ظروف عائلة أسماء الصعبة. فأجابتني بأنها سوف تخبر أبي بالموضوع، وفعلاً كلمته فوافق بسرعة.

انطلقت مسرعة وضربت رقم أسماء، وكالعادة رد عليّ سالم قلت له: لو سمحت أريد أسماء بسرعة.

سالم: الأمر مهم لهذه الدرجة لم تلقي السلام.

حتى استغربت لأني لم أكن ألقي السلام عليه في السابق!.

سالم: تعالي رنا تريدك.

أسماء: أهلاً رنا ما الأمر تكلمينني اليوم مرتين على غير العادة؟.

رنا: عندي لكم مفاجأة، لقد وافق أبي على توظيف سالم عنده.

أسماء: سالم تعال لقد وجدت لك وظيفة.

رنا: غداً صباحاً على سالم أن يأخذ كل أوراقه وينطلق إلى شركة المنصور للاستيراد والتصدير.

أسماء: إن شاء الله، خذي أمي تريد مكالمتك.

أم سالم: رنا يا ابنتي شكراً لك، إنني طالما أحببتك، بلغي والدتك سلامي وشكري.

رنا: العفو ياخالة أم سالم أنا وأسماء أختان وأنا لم أفعل سوى الواجب فقط.

أسماء: رنا يود سالم أن يشكرك هل توافقين؟.

لم أعرف بماذا أجيب قلت بسرعة: عندما يبدأ في عمله فليشكرني مع السلامة إن أمي تريدني الآن. أغلقت الخط وأنا فرحة جداً لأني استطعت أن أساعد أعز صديقة لدي.

استطاع سالم أن ينال إعجاب أبي بشكل ملحوظ في مدة وجيزة. وسالم ازداد في مضايقتي ولاسيما عندما طلبت من أسماء أن يعمل لي بحثاً. بل ازدات الجرأة عنده لأن يطلبني في البيت ويسلم على والدتي ويخبرها أنه سالم ويريد سؤالي عن البحث الذي طلبته.

كان أسلوبه مهذباً للغاية مما جعل أمي وأبي أيضاً يوافقان على أن أكلمه أمام أعينهما.

كان أهلي يثقون بي ثقة تامة، وهذه الثقة الزائدة جعلتني لا أعرف الخطأ من الصحيح. تماديت في مكالماتي مع سالم بل لم نعد نتكلم في البحوث والمواد الدراسية.

أصبحت حالتنا تتطور إلى حالة حب. ذات يوم طلب مني سالم رأيي بوضوح في موضوعه، وهل أنا سوف أوافق عليه إن طلبني من والدي؟!.

قلت له: لا أعرف، يجب أن تكون إنساناً قوياً كي تطلبني من أبي، أنت الآن مجرد موظف بسيط.

قال لي سالم: ما الحل برأيك؟. قلت: أن تكمل دراستك العليا. رفض بشدة مدعياً أنه يكره الدراسة ولا يستطيع أن يكمل.

شجعته وقلت له: سالم، إذا كنت تحبني فعلاً يجب أن تناضل من أجل هذا الحب، أريدك إن جئت تطلبني ترفع رأسي بين الأقارب والأصدقاء ولاسيما أن لك منافسين كثر من ذوي المال والشأن الرفيع.

أغلقت السماعة بعد ما طلبت منه أن يقاطعني في حال رفضه. كنت أريده أن يكون شخصية مرموقة بالمجتمع ولاسيما أن أحواله المادية معدومة.

حاولت أن أقسو على قلبي ولم أهاتفه ولم أرد على مكالماته أيضاً، وحتى أسماء لم أعد أهاتفها كالسابق، بل أقتصر على رؤيتها خلال وجودنا في الجامعة، إلى أن جاءت أسماء ذات يوم إلى بيتنا وأخبرتني أن سالماً يريدني لأمر عاجل جداً، وسلمتني رسالة بخط يده، لكني رفضتها وعندما ألحت أسماء علي مزقتها أمام عينيها.

وقلت لها: أسماء إني أريد سالماً على مستوى رفيع، أنا لا يهمني المال أو الألماس، إني راضية به هكذا، لكني طلبت مهري منه وهو رفض، أريده أن يكمل دراسته العليا.

إلى أن انتهت السنة الأولى من الجامعة ونجحت بتفوق ولله الحمد. وفي يوم نجاحي قررت عمل حفلة صغيرة في بيتنا بعد موافقة والدتي طبعاً.

هاتفت كل صديقاتي ودعوتهن للحلفة وطلبت الكوفيرة الخاصة بي لتزين لي شعري بأجمل تسريحة بعد أن ارتديت فستاني الذي اشتراه والدي لي من باريس في آخر زيارة له.

كنت ذاك اليوم كالجوهرة، أعجبت صديقاتي بفخامة منزلنا وبذوق أمي الرفيع في انتقاء الأثاث من أنحاء العالم.

همست لي أسماء إذا رآكِ سالم سوف يجن. قلت لها: إن أمر سالم انتهى بعد رفضه إكمال دراسته العليا.

بينما هممت أن أقطع كعكتي دخلت فتاة في قمة الروعة والفخامة، كان ذلك ظاهراً على فستانها وطقم الألماس الذي ترتديه.

رحّبت بها على الفور إلى أن أخبرتني أنها تدعى بيان هاشم العاموري. وقالت لي: بكل تأكيد أنتِ رنا.

كانت طوال الحفلة تنظر إلي بشكل لفت انتباه الجميع، بعد انتهاء الحفلة عرفت أن أبي وأمي استدعيا تلك الفتاة المغرورة غروراً كبيراً.

وعرفت أن والدها هو شريك أبي في أحد مشاريعه الكبيرة، بل زاد الطين بله عندما طلب مني أبي أن أذهب لزيارة بيان بعد وصول بطاقة دعوة لي، حيث إن بياناً تقيم حفلة أيضاً (عرفت أنها إنسانة مغرورة من أول نظرة لها، فهي تقيم حفلة على غرار حفلتي) .

ارتديت فستاناً عادياً جداً وسرحت شعري تسريحة متواضعة جداً والمكياج أيضاً كان متواضعاً وخفيفاً للغاية، لكن عندما رأتني أمي طلبت مني تغيير هذه المهزلة فوراً بحجة أني سوف أفضحهم بهذه الملابس غير اللائقة بابنت المنصور، واستغربت من كلام أمي حيث كان جديّاً للغاية وأول مرة تتدخل أمي بملابسي.

ارتديت بعدها فستاناً آخر على ذوق أمي الخاص، كان فستاناً فخماً جداً والتسريحة كانت أيضاً رائعة، وأحسست بأني أضاهي ملكات الجمال حينها.

دخلت المكان المخصص بالحفل حيث كان الحفل بصالة في أحد الفنادق الفخمة، كان الحفل فخماً جداً يفوق بكثير حفلتي المتواضعة جداً، عرفت أن بياناً تريد إغاظتي فقط؛ ولذلك دعتني إلى حفلتها.

لكني كنت على ثقة تامة أني أجمل منها بكثير، ولفتُّ أنظار الجميع بطلَّتي البهية، حيث كان جميع الحاضرات يريدون التعرف علي ومن أنا وابنت من أنا.

كانت المدعوات جميعهن من الشخصيات المرموقة، وما إن انتهت الحفلة ووصلت إلى البيت وجدت أمي في قمة السعادة، وتخبرني: رنا تعرفين كم امرأة هاتفتني الليلة؟ قلت: كم؟. قالت لي: نصف المدعوات في الحفلة. قلت: أي حفلة؟ قالت: حفلة بيان. وجميعهن يطلبن مواعيد للزيارة، وأخيراً يا ابنتي سوف تتزوجين من إنسان من مستوانا الاجتماعي نفسه.

عرفت في الحال أن أمي طلبت مني أن أذهب لهذه الحفلة بالذات كي أتزوج من شخص قد يضاهي والدي من حيث المال والمستوى وكل شيء، لا تعرف أمي أن هذه الأمور أعدها من السفاسف ولا أهتم بها إطلاقاً. وإن طموحاتي أن أتزوج إنساناً معدوماً وأبني معه بيتنا لبنة لبنة، وأعيش معه الحياة بكل بساطتها. وإنني مللت من حياتي هذه وأتشوق لأن أعيش الحياة دون أي تكلفٍ.

ذهبت إلى غرفتي وإذا بسالم يهاتفني، نظرت إلى الساعة يااااه إنها الساعة الرابعة بعد منتصف الليل!.

سالم: رنا، أين كنتِ لهذه الساعة المتأخرة؟ إني لا أرضى لزوجتي في المستقبل مثل هذا الأمر إطلاقاً.

رنا: سالم كيف لك وجه أن تهاتفني وأنت لم تنفذ مطالبي؟.

سالم: اليوم قبلت في الماجستير بعدما اجتزت امتحان المقابلة الشخصية.

رنا: معقول يا سالم أخيراً إنه أجمل خبر سمعته اليوم.

سالم: لا تغيري الموضوع وأخبريني أين كنتِ لهذه الساعة المتأخرة، تعرفين أنه وقت أذان الفجر.

رنا: سالم أنت تغار علي إذاً. اعترف فوراً.

سالم: الأمر ليس غيرة بل هذا مبدئي، كيف لزوجتي أن تتأخر لهذا الوقت؟.

رنا: على رسلك لم أصبح زوجتك بعد، وكنت في حفلة لإحداهن تعرفها أختك أسماء، لقد أتت لحفلتي.

سالم: أرجوك يا رنا لا تختلطي بهؤلاء الناس.

رنا: لماذا؟.

سالم: لأنك تعرفين حالتي، أنا إنسان فقير، فكل ميزانية حياتي كلها لا تنفع لإقامة حفلة بالمستقبل.

رنا: ضحكتُ ضحكة غريبة وقلت: من قال لك إني سأقيم حفلة أصلاً، أنا أتشوق لحياة التقشف. وأنت تقول لي حفلة!.

سالم: يعني أنك لم تطلبي مني أن تعيشي بالمستوى نفسه الذي تعيشين فيه حالياً.

رنا: لا طبعاً سوف أعيش معك الحياة بأبسط صورها، ولا تتخيل أن أطلب منك غير هذا.

سالم: الحمد لله، أخبريني عن الحفلة من كانت أجمل واحدة بينكن؟.

رنا: طبعاً أنا كالعادة، وبيان كادت عيونها تطير من الغيرة مني.

سالم: من بيان؟.

رنا: بنت هاشم العاموري صاحبة الحفلة.

سالم: آهاااااا إن والدها ذو شأن كبير.

رنا: تعرفه؟.

سالم: طبعاً ومن لا يعرفه، لكني لم أكن أعرف أن لديه ابنة اسمها بيان.

رنا: سالم ما هذا؟ تحاول إغاظتي صحيح.

سالم: يضحك تغارين إذاً.

رنا: نعم أغار، لكن ليس من أمثال هذه المغرورة، أرجوك غيّر الموضوع فوراً وإلا أغلقت الهاتف.

نمت طوال النهار بعد هذه الليلة، وعندما استيقظت كانت أمي فرحة للغاية. قالت: تعرفين من هاتفني آنفاً. قلت: من؟. قالت: إنها أم بيان زوجة هاشم العاموري تريد موعداً للزيارة.

قلت لها: أمي تعرفين إنه أمر لا يعنيني، أنا سأذهب إلى النادي في وقت زيارتها لأني أكره ابنتهم المغرورة بيان.

رفضت أمي بشدة وطلبت مني البقاء بحجة أن ابنتها سوف تأتي معها.

أعدَّت أمي لهذا الأمر إعداداً يفوق العادة بعد أن أعطتهم موعداً بعد أسبوع، وفي اليوم المحدد وصلت زوجة العاموري ترفع أنفها في السماء، فعرفت أن ابنتها ورثت الغرور من والدتها.

قالت لي: بمجرد وصولها هذه رنا ورمقتني من رأسي إلى أخمص قدمي. رحّبت بها أمي وطلبت منها الجلوس، وفعلاً جلست بعد أن ألقت نظرة على بيتنا الفخم جداً.

لم تترك أمي شيئاً إلا وطلبته من أرجاء العالم، وكل هذا لإرضاء زوجة العاموري المغرورة.

غادرت زوجة العاموري وكلها سعادة بما وجدته أمامها وعرفت أن عائلتنا بالمستوى نفسه لعائلتهم بعد أن تناولت طعام العشاء، حيث إن أمي طلبت لها بوفيهاً مفتوحاً فيه كل المأكولات الشرقية والغربية.

اضطررت أن أجامل حتى النهاية وأصطنع البسمة بين الحين والآخر. لم أعرف أن هذه الزيارة مجرد رحلة استكشافية لزوجة العاموري.

لأني سمعت بالصدفة ودون قصد أمي وأبي يتحادثان بهذا الأمر، أخبرها أن للعاموري ابناً ويجوز أنها تريد أن تخطبني له بعد أن استكشفت الوضع.

كـدت أجن، من هـذا الأمـر وفكرت بسـرعـة، وسـالم إنه حلمي ومستقبلي، كيف لي أن أحطم أحلامه وأحلامي؟.

هاتفت سالماً بسرعة أخبره بما حدث.

رنا: مساء الخير هل تعرف من زارنا اليوم، إنها زوجة العاموري وابنته.

سالم: مساء النور لماذا أنتِ مضطربة، هذا شيء عادي؛ لأنه توجد أعمال مرتبطة بين والدك والعاموري.

رنا: لا يا سالم سمعت أبي يقول لأمي: إن للعاموري ولداً ويريد أن يخطبني.

سالم: ما شاء الله مبارك لو أنا مكانك لوافقت فوراً.

رنا: سالم أرجوك ليس وقت مزاح.

سالم: والله لا أمزح، من يترك مال العاموري وثروته.

رنا: سالم كفَّ عن المزاح أرجوك إن الأمر مهم وجدي.

سالم: ببرود شديد إن الأمر بيدك أنتِ تستطيعين بكل برود أن تقولي لا فقط لا غير.

بعدها رفضت أنا هذا الزواج، لكن أبي لم يقُل لهم إني أرفض ابن العاموري، بل قال إنني أريد إكمال دراستي، ويمكن تأجيل ذلك إلى أن أنتهي من دراستي.

عرفت أن ابن العاموري إنسان مغرور وقد تزوج أكثر من مرة، وكل زيجاته كانت نهايتها الطلاق بعد شهر أو شهرين. هذا بالإضافة إلى أنه يكثر من السفر للخارج ويكاد لا يسكن في بلادنا إلا قليلاً جداً.

استمر سالم بالعمل عند والدي وأصبح أبي يعتمد عليه اعتماداً كبيراً.

مرّت الأيام بسرعة وانتهى سالم من رسالة الماجستير وأنا كنت في سنة ثالثة في الجامعة.

رجع أخي لؤي من الخارج وحاملاً شهادة الطب وترافقها شهادة زمالة ومعه زوجته الكندية التي لم نعلم بها إلا الآن، ومعها ولدان أيضاً، إنهما أبناء أخي لؤي، وضعنا جميعاً أمام الأمر الواقع.

كانت صدمة بالنسبة لأمي وأبي. أما أنا فقد كان لي مجرد اختبار في طلاقتي باللغة الانكليزية.

رحبت بها وفرحت جداً بولدي أخي اللذين لا يعرفان من العربية غير اسمها، أعتقد أنهما لا يعرفان اسمها أيضاً.

فرحت بي زوجة أخي وقالت: (واوو رنا غود غود بيتوفل good, good، beatiful) وقالت: لو أني أعيش بكندا لحصلت على لقب ملكة الجمال بكل سهولة.

حاولت إقناعها أن الجمال جمال الروح وليس الشكل، وأن المرأة العربية معتزة بحجابها ولا تبدي زينتها إلا لمن يحل لها، لكنها لم تقتنع بذلك. قال لي لؤي: لا تتعبي نفسك حاولت قبلك كثيراً دون جدوى.

حاولت إقناعها بمثال بسيط قلت: خذي قطعة لحم وضعيها بالشارع ماذا يحصل لها؟ قالت: سوف تدوسها السيارت. ضحكت وقلت لها: أيضاً ماذا يحصل لها. قالت: سوف تأكلها القطط.

قلت لها: إنها مكشوفة أليس كذلك؟. قالت لي: نعم.

هذا يعني أن كل الحشرات والقاذورات سوف تنال منها، وإذا تركت هكذا ولم يجدها أحد سوف تتكون بها مادة جرثومية وسوف تتلف بسرعة.

قالت لي: نعم كلامك سليم، لكن ما دخل هذا بحديث ملكات الجمال؟. قلت لها: وإذا أحضرت قطعة لحم ووضعتها في كيس ثم وضعتيها في الفريزر هل ستصل إليها القطط؟.

قلت بضحكة: هل ستدوسها السيارات؟ قالت لي: لا.

قلت إذاً: هذا حال من تلبس الحجاب وذاك حال من تترك الحجاب. قالت لي: أرجوك أحضري لي حجاباً بسرعة.

نظر لي أخي وقال: يا عفريتة كيف أقنعتيها، منذ زمن وأنا أحاول معها لكن دون جدوى.

أخي لؤي كان متفهماً جداً، أخبرته عن مشروع أبي في خطبتي من ابن العاموري. كان رأي أخي مشابهاً تماماً لرأيي، بل أراد أن يحدث أبي عن هذا الموضوع لكني رفضت؛ لأن أمامي سنة على التخرج ويمكن أن تحل الأمور بحلٍ وديٍ.

لكن سرعان ما سافر أخي ولاسيما أن زوجته كانت لا تحب بلادنا وتريد الرجوع إلى كندا بأسرع وقت. وأمي أيضاً كانت لا تحبها إطلاقاً.

سالم كان يعرف أنه ذو قدر كبير في قلبي؛ لذلك كان واثقاً كل الثقة أني سوف أرفض زواجي من ابن العاموري.

انتهت أيام الجامعة بوقت غير متوقع، وسرعان ما تقدم لخطبتي ابن العاموري مرة أخرى. لكني هذه المرة رفضت وسكت أبي وأمي ولم ينطقا بكلمة واحدة أمام رفضي.

وبعد أيام علم ابن العاموري أني رفضته لكنه لم يسكت بل اتصل على هاتفي الخاص وهددني بنشر صور فاضحة إن لم أوافق على الزواج منه.

لم أصدقه طبعاً لأني كنت أثق بنفسي، إنها عبارة عن صور مفبركة ولا يوجد بها مصداقية إطلاقاً.

لكنه طلب مني أن أضيفه على المسنجر لكي أرى بعيني مصداقية كلامه. ووجدت أنه على حق، إن التي في الصور هي أنا حقاً مع اختلاف بسيط.

وانصدمت أكثر عندما قال لي: إنه اشترى صوري من فتاة أثق بها جداً. اتهمت فورا أخته، لكنه نفى ذلك بحجة أن أخته لا تنزل لهذا المستوى الدنيء.

لم أنم طوال الليل «من استغفلني والتقط لي صور؟» وأخذت أبكي وأبكي.

ماذا أفعل من أستشير؟ سالم؟! لن يصدقني إن طلبت مساعدته. هل أقول لأمي ماذا أفعل؟؟.

اتصلت بسالم وأخبرته أن سوف أوافق على الزواج من ابن العاموري. قال لي: إنه يعرف هذا مسبقاً. وكان غير مبالٍ إطلاقاً بحالتي وبما يحدث بي.

اتصلت على أسماء وأخبرتها. قالت لي: سالم تغيّر تغيراً كبيراً ولاسيما بعد أن أصبح غنياً. دُهشت كيف ومن أين له؟!.

قالت أسماء: فجأه أصبح غنياً ونكاد لا نراه إطلاقاً، لقد أصبح إنساناً آخر.

أخبرت أمي أني موافقة على الزواج، فرحت أمي واتصلت بسرعة بأبي تبشره، وسرعان ما طار أبي من الفرحة.

وجاء اليوم الذي كنت أتمنى أن لا يأتي. حضر العاموري وأقاربه وابنه باسل زوج المستقبل بأبهى حلة.

بعد كتابة العقد طلب مني والدي أن أجلس مع زوجي باسل العاموري. كانت لحظة بائسة بالنسبة لي.

كيف لي أن أضع عيني بعينه ويا ترى ما هي وجهة نظره نحوي؟. هل سوف يحتقرني بعد فضيحة الصور التي لا أعلم مصدرها؟. كل ما أعلمه أنها تشبهني تماماً وتكاد تكون التي في الصور هي أنا!!.

توكلت على الله وخرجت.

دخلت وقلت بصوت غير مسموع: السلام عليكم. وقف وردّ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ما شاء الله أجمل من الصور بكثير.

لم أتوقع لقاءً بكلمات صافعة منذ البداية، يا له من متعجرف. كيف يقول لي هكذا من أول لقاء بيننا؟.

تكلم معي وكثر كلامه، لكني لم أجبه بكلمة واحدة. طلب مني أن ينظر إلى عيني لكني رفضت.

قال لي: بعد كل هذا أعرف ماذا تريدين. تريدين أن تعرفي من أين حصلت على الصور؟.

نظرت إليه بطرف عيني وقلت له: نعم. قال لي: بكل سهولة، من مالي. اشتريت صورك بالمال.

قلت: من باعك صوري؟.

قال: باعني إياها سالم بمساعدة من صديقتك.

لم أصدق انهمرت دموعي انهماراً غريباً. يالي من غبية، صديقتي الحميمة تبيعني وتخونني. وحبيبي الذي اعتقدت في يوم من الأيام أنه أغلى من روحي يبعني بدراهم معدودة.

أمسك باسل بيدي وقال: لا تبكي سوف أنال منه عما قريب، الصور أنا صممتها بنفسي.

أعرف أنك لست أنتِ التي كانت بالصور، فقط حصلت على صورة واحدة بثوانٍ وأستطيع أن أفعل بها ما أشاء وكوني مطمئنة لي أرجوكِ، أنا لا أسمح أن تنشر صور زوجتي وحبيبتي أبداً، وحتى لو كنت أنا المستفيد الوحيد من ذلك.

قلت له: أنت إنسان مغرور ولا تحب إلا نفسك وأناني تشوه سمعتي كي أقبل على الزواج بك.

قال لي: أرجوك امنحيني فرصة أخيرة فقط وسوف أثبت لك من أنا. أنا كنت مغروراً وأنانياً مع من تريدني فقط لمالي، لكن أنتِ غيرهن تماماً. أنت الوحيدة التي رفضت مالي ورفضتني وعانيت كثيراً حتى وافقت على الزواج مني.

لم يكن أمامي إلا هذا الأسلوب، صدقيني أنا تغيّرت كثيراً وسوف أثبت لكِ أني إنسان آخر معك. غير الذي كنتِ تسمعين عنه.

كنت أريد أن أصدقه لكن دهشتي من كلماته، كانت كبيرة.

اليوم خسرت إنساناً حقيراً وأنانياً وكسبت إنساناً يحبني بصدق أو كما يظهر لي الآن.

يا إلهي كيف تنعكس الأمور بسرعة؟. هذا قبل بضع دقائق كان أكره مخلوق إلى قلبي. وخلال لحظات استطاع أن يكسبني. سوف أعطيه فرصة. وبالوقت نفسه سوف أنسى كل شيء مر في حياتي سابقاً.

سوف أبدأ حياتي من جديد. منذ هذا اليوم فقط.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مأساة فتاة	٥
وجهة نظر	١٣
حب بلا روح	٣٧
يوم في حياتي	٤٣
زوجي مدمن	٥٥
كلمات ناقصة	٧٣
حبك عار	٥٩